
كتاب الهلال
سندباد في سيارة
دكتور حسين فوزي

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر من « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : يوسف السباعي

رئيس التحرير : صالح جودت

المشرف الفني : جمال قطب

سكرتير التحرير : عايدة عياد

العدد ٢٦٠ ـ جمادى الآخره ١٣٩٢ اغسطس ١٩٧٢

No. 260 — Août 1972

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ ـ فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات امريكية او ٢ جك ـ والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية ـ والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة
الفنان جمال قطب

دكتور حسين فوزي

سندباد في سيارة

دار الهلال


تليجرام
مكتبة سور الأزبكية

تقديم

بلغنى أيها الملك السعيد ان كان فى زمن الخليفة هارون الرشيد بمدينة بغداد رجل يقال له : «السندباد الحمال » . تعب من مشاله ذات يوم شديد الحر ، فألقى به الى مصطبة عريضة بباب بيت عظيم « أمامه كنس ورش ، وهواء معتدل » حمل اليه عبيرا منعشا ، ونغم أوتار ، وتغريد أطيار ، يدعوه صاحب الدار ؛ فاذا الحمال بحضرة رجل عظيم « وكزه الشيب فى عارضيه ، مليح الصورة ، عليه هيبة ووقار ، وعز وافتخار » .

يكرم العظيم وفادة الحمال، فاذا عرف بأنه السندباد قال له ان اسمك مثل اسمى ، فانا « السندباد البحرى » والتفت الى من فى المجلس من الضيوف قائلا : « وما دامت الفرصة التى أتاحها لى أخى السندباد البرى قد سنحت ، فانى محدثكم بحديثى ، وما قاسيت من أهوال فى حياة المخاطر التى عشتها » .

ولقد دعانى السندباد البحرى الى مجلسه ؛ عندما اتاحت لى صروف الزمان ان اركب البحار التى ركبها ، دون معاناة المخاطر التى عاشها .. واستأذنته فى ان تحمل كتبى اسمه الكريم

رحلة الربيع وبعض. هذا الصيف سندبادية من نوع

عجيب وجديد على ، لم اركب فيها البحر الا ساعة زمانية ، عبرت فيها مضيق جبل طارق من مدينة الجزيرة (الخثيراس) فى معدية انتقلت اليها اسوق سيارة عند طرف الاندلس الجنوبى ، وغادرتها خلف عجلة القيادة الى طرف المغرب الشمالى عند سبتة .

رحلة بدأت فى باريس يوم ١٧ مايو عام ١٩٧١ ، وانتهت فى القاهرة ، يوم أول يولية .. ستة اسابيع قطعت فيها السيارة الهمام عشرة آلاف كيلومتر وبضعة مئات ، نهبا فى الارض ، وقطعتها نهبا للقلق المستحوذ على خشية خطأ فى التقدير ، وانكسار فى عصا التسيار ، والتيه ، وانقطاع أسباب العيش حيث لا مجيب ولا نصير . اقضى هزيعا من الليل أعد للمرحلة التالية تحديدا للمسافات واختيارا للمأوى ، واطلاعا مسبقا على ما يقدر لى مشاهدته فى الظعن والاقامة .

رحلة القلق ، لا أتراسل مع قريب أو صديق ، ولا اتوقع رسالة من احد ، بحكم الانتقال الدائم ، والتركيز على خط السير .

رحلة لا تسمح بالتأمل الهادىء فى الطبيعة السخية بأشكالها والوانها ، أرضها وتضاريسها ، وسمائها وانهارها ، وجبالها ووديانها .. وصحاريها .. حقت على فيها قولة « ينهب الارض نهبا » !

الا ان أهجع فى مكان ليلة أو أكثر ، فأعود الى المشى والتسكع ، والمشاهدة الهادئة .. وحدث هذا فى انجوليم وبايون بفرنسا ، وسان سباستيان ومدريد وقرطبة واشبيليه وغرناطة بأسبانيا ، ومراكش والرباط وفاس ومكناس بالمغرب ووهران وتلمسان والجزائر وقسنطينة وعنابة بالجزائر ، وتونس والقيروان وسوسة وصفاقس وقابس بتونس ، وطرابلس وبنغازى وطبرق بليبيا .

تتدافع الرؤى وتختلط اسماء الفنـــادق مع اسـماء مدنها ، الا أشكالها ، اذ يكفى أن أتذكر شكل الفنـدق والمنظر من نافذة حجرتى حتى ارد اسمه الى مكانه .
رحلة بلا مذكرات ؛ مثل الـكثير من رحـلاتى التى اشغل فيها بما لا يسمح بتدوين أشياء عنها تفقد قيمتها مع الزمن . اما ما تختزنه الذاكرة فهو الجدير بالكتابة عنه فيما بعد ، مستعينا بالـكتب والخرائط والصور.. واوراق حساب الفنادق !

فى رحلتى هذه نزل واحد لا يحمل اسما ولا رسـما ، بدائى متواضع ، قيمته عندى أن وجدت فيه المـأوى والمـأكل ، وقد ســمح لى بقطع رحلة الالف كيلومتر وزيادة ما بين طرابلس وبنغازى . ولقـد صـورت لى

هذه الآلاف (خطـأ) وكأنها غفل من كل شيء ، حتى المـاء والنفط ، مما اضطرنى قبـل مغادرة بلاد تونس الى اقتناء صفيحتين (جيرى كان) ، احتياطا لم يكن له داع ولا لزوم ، بفضل ذلك النزل البسيط .

صـعدت فى جبـال شـامخة ، ونزلت الى وديان سحيقة . ومسـالك الجبال واحدة فى تعاريجها صعدا وهبوطا .. تدور لها رأس السائق دوخا ، ويبلغ حرصه فيها الاحتفاظ بما لا يقل عن شبر بين السيارة الطالعة والنازلة ، وبخاصة فى المنحنيات ، التى لا ينتهى أمرها الا عندما تغادر السفح الى المنبسط . ولا يقف الامر عند جبل واحد ، فما تلبث حتى تصعد فى المرتفع التالى، وما يليه .

صاحبت بحرنا الابيض على مسـتواه ، ومن اعالى السفوح . وسقت على أطراف الهوات السحيقـة فى طرق متآكلة تحذرك لافتاتها من الانهيـار اذا انحرفت الى الشفا ، ثم تسلمك لمسالك عجيبة ، أنفاق وممرات

ذات اسقف من صخور بارزة معلقة تنبهك اللافتات الى انك تمر تحت « مساقط احجار » (ما اصدق قول القصاص الشعبي « جبال تشيلك وجبال تحطك »)

وعندما اتخذت طريقي في الجزائر من عنابة الى سوق الاخراز ، متجها الى حدود تونس وسط جبال وتلال جرداء ، حتى « غار الدماء » ، اندفعت كالسيل العرم ، لا الوى على شيء ، وكأني اتشفى من عذاب المسالك « الزجزاجية » ، ذات المنحنيات التي تشبه بدبوس الشعر ، حتى بلغت «مجاز الباب» ، فتونس الخضراء .

وسلمتني طرق تونس المنبسطة الى طرق ليبيا الفسيحة ، الذاهبة على مدد الشوف دون انحراف ، لا تعطلك فيها حيوانات المراعي ، ولا صريخ ابن يومين .

فاذا بي انطلق من خطر الاصطدام والهوى فوق المفاوز المتشابكة ، الى خطر السرعات التي لم أبلغها من قبل ابدا . والسرعة فوق الطرق الليبية توقظك من ملال الطريق السوي الممتد الى مئات ومئات من الفراسخ . سرعات لا تكاد تحس بها في ذلك الفضاء الواسع . فاذا ادركت تعديك المائة واربعين كيلو مترا الى المائة والستين فالسبعين ، اخذت الرهبة بتلابيب نفسك ، اذ تشعر بأن احتكامك بالآلة المخيفة لم يعد كما كان حول المائة .. فتستعيد هدوءك اذ تستقر حوالي المائة والثلاثين ..

أما بعد اجتياز نقطة الحدود الليبية عند « مساعد » والاتجاه الى السلوم ، فأن الطريق غير السوية تفرض عليك السير بحذر بالغ ،وبطء قاس، لتواصل السير مداولة بين الطريق الاصلية ، وما يعتورها من تحويلات خارج الخط ، تهددك فيها الحجارة والحصى والرمال والاتربة

بالانفراس الا ان تتلمس طريقك فوق « مدق » سيارات سابقة .

يالله ! كيف يتأتى أن تحمينا شر الطرق من السرعة الخطيرة ؛ فوق المسالك المنبسطة ، المستوية التى عرفت فى فرنسا واسبانيا والشمال الافريقى ـ الا فوق الجبال !

وما أعجب طرق الحضارة تلك ! .. تجتازها بخريطة وبغير خريطة ، بمعرفة مسبقة من كتب الادلاء ، وبدون معرفة ، وكانت خرائطى وادلائى كافية طوال العشرة آلاف كيلومتر ، فيما عدا الجزائر ، التى بحثت عن خرائط لها خارج الجزائر وداخلها ، فلم أوفق الى شىء منها !

علامات الطرق واضحة ، واخطارها يشار اليها بالرمز والكتابة . فلا ظلام فيها ولا تغريب ، ولا تيه. انطلق على باب الله دون وجل ، فاللافتات كفيلة بحمايتك من الخطأ والخطر .. على الا تهمل قراءة أية واحدة منها .

لم يحدث لى أن تهت فى الصحراء .. وأكثر ما ضايقنى التيه فى المدن ، ارسم طريقى على خرائطها ، واودعها ذاكرتى .. واذا بطرق « الاتجاه الواحد » تمحو معالم استعدادى ، فادور فى حلقة لا أخرج منها الا بسؤال أهل المروءة .

ولقد عرفت فى هؤلاء من يتحاشون الاقرار بأنهم لا يعرفون ، فيدلونك بطريقة « كل شىء كان » وحدث أن سألت شخصين متجاورين فقال الواحد يمنة ، وقال الآخر يسرة ، وغادرتهما يتجادلان : خلاصا بنفسى من الميمنة والميسرة !

هذا كل ما عرفت من حوادث .. لم يصب السيارة

عطب ولا خدش ، لا بفضـــل قيادتى ، ولكن بفضـــل اتقان القيــادة عند كافة السائقين بكل تلك البـــلاد ، كانوا هم الذين يتجنبون خطئى !

أهم حــادث وقع لى كان فى حــاضرة من الشـــمال الافريقى .. نزلت من فندق الضاحية الى جادة فسيحة هى أوسع واطول شارع فى عاصــمة البـلاد . وركنت السيارة وسط رتل طويل من سيارات تقف على صفى طوار يتوسط الشارع العريض . كان ذلك فى الصبــاح التالى لوصولى مساء الى العاصمة ، وضاحيتها الجميلة على شاطىء البحر .

دلفت أسعى الى مصرف لتحويل النقد ، فاذا مكاتب الـكامبيو تقفل قبل الظهر بساعة . فاخــذت اتجول مشيا فى أسواق المدينة الآسرة ، اســـــتعيد ذكريات شبابى فيها ، بين جاداتها وبطحاواتها ومســـــاجدها الاثرية التى جمعت بين فن المشارقة والمغاربة .

وعندما عدت الى الجادة الفسـيحة ، وجدت طوارها خاليا تماما من السيارات التى كانت تزحمه فى الصبــاح .. حتى السيارة التى تركتها هناك .. اختفت بقــدرة قادر ! ..

لم أفكر ابدا فى ان تكون قــد سرقت .. وحسبت لاول وهلة اننى أخطـــــأت تحديد موقعها ، فقطعت الشارع ريحة وجيئة حتى تأكدت من اختفاء السيــارة فعلا ! ..

وتذكرت ان محافظا للقاهرة « تعازم » ذات مرة ، وامر برفع كل سيارة تخالف المرابط المقررة ، ونقلهــا الى قلم المرور ، وتغريم سائقها خمســـة جنيهــات . فاسرعت الى واحــد من الاهالى اســـاله : هل يحدث عندكم أن تحمل الشرطة سيارة مقفلة مفرملة باحكام ؟

وقال لى بالفرنسية : امال ! .. اذهب وابحث عن سيارتك فى حوش قلم المرور . واستعمل كلمة اضحكتنى هى التى تطلق على معتقل الكلاب السائمة ! ..

مشيت فى حمارة القيظ طويلا ، فليس معى من نقد البلاد مليم واحد ، حتى بلغت شفخانة المرور ، فاذا السيارة هناك ، نقلت « شسيلة بيلة » ، ووقفت كالعروس كسيفة البال وسط السيارات الشضلية التى تعاقب على مخالفتها الاوامر .

قادونى الى الموكل بامر المحابيس.. فاعتذرت بطريقة لا تخلو من العتاب المستتر : وصلت ياسيدى مساء الامس من خارج بلادكم ، ونزلت الى عاصمتكم هذا الصباح ، واوقفت السيارة وسط صفين طويلين من اخدانها ، وواضح لكم من لوحتها الدولية ان صاحبها سائح ، عابر سبيل.. وفى بلدى يعامل مرور الاسكندرية سيارات القاهرة والاقاليم برفق .

كان الرجل لطيف المعشر ، فبرأ السيارة ، وشطب رقمها من جدول المخالفات . ولو لم يفعل لدخلنا فى اشكال خلو الجيب من نقد البلد المضياف الكريم .. فى ساعة نحس البنوك ! ..

ودرس كبير وعيته من المرور باثنى عشر جمرك وشرطة حدود ، لا علاقة له بتفتيش الامتعة ، أو عدم تفتيشها . ولا اذكر ان فتشت امتعتى الا فى الجمرك الاسبانى عند الحدود الفرنسية .. امرت بفتح حقيبة كبيرة .. قلب الرجل محتوياتها ، فاكتشف مجلدا من خمس مجلدات فى سيرة فولفجانج اماديوس موزار .. نظر الى زميله مبتسما ، وانزل بيده غطاء الحقيبة ، وحيانى فى ادب بالغ ! ..

قضيت فى بعض جمارك الشمال الافريقى ما لا يقل

عن ساعتين املأ فى أوراق واستمارات أختمها من شباك الى شباك .. فما هو الدرس الذى وعيت ؟ ..

البلد الذى تشغلك جماركه بملء استمارات وبطاقات وامضاءات وبصمات وأختام ، يعنى انه قليل الادراك لاهمية السياحة حتى لو قال بلسانه غير ذلك ، واقسم ان لم يستفرق دخولى وخروجى من بلاد غربى أوربا وشماليها أكثر من ربع ساعة ! ..

لم يخفف هم العطل الكبير فى بلاد الشمال الافريقى معنوياً حسن المعاملة واشعارى من قبل السلطات بأنى أخ وضيف . ومثل هذا ، وخير من هذا ما رأيت وأشهد ، من أمانة ولطف وانسانية ، والاحساس بأننى اعود الى بلدى الحبيب . . . فى تلك المنطقة النائية عند الحدود المصرية الليبية ، وقد أصبحت نموذجا فى الدقة والحرص على أداء الواجب فى نزاهة ، وحسن ادراك الظروف . جزاهم الله عنا نحن السفار الابرياء كل خير .. فبمثل أولئك الرجال نتوقع اصلاح الحال ، وحسن المآل ، آمين ..

مصـــــر ..
واسطة العقد بين المشارقة والمغاربة

فى حياة هذا المســـافر مفارقة بين ما تعلمـــه فى المدرسة ، وما خبره فى رحلاته .. عرف فى المدرسة ، والاطلاع العام . المشرق الاسلامى أكثر من المغرب .. وكان الموكلين ببرامج التعليم فى زمانى وقفوا عند السلوم .. وطبيعى أن يتجه المغاربه والمشارقة الى أرض الوحى والرسالة والخلافه ..

شـــاءت المقادير ان تبدأ التجربة الحية لهذا المسـافر فى المجموعة العربية بالمغـــرب ، قبل المشرق .. عندما سـافرت منذ نيف واربعين عاما من باريس الى تونس ، لاتابع بحثا علميا بمعهد «سلامبو» الاقيانوغرافى بضاحية تونس .. بقيت هناك شهرا كاملا اعمل مع فرنســيين، واسكن فى نزل فرنسى بالضـاحية .. وكنت انزل الى تونــس الخضراء فى اوقات فراغى للتجوال فى المدينـــة الآسرة ، والجلوس الى وراق أمام جامع الزيتونة .. وتناول الطعام على مقربة من ذلك المكان .. وقد أزور متحف قصر « الباردو » ، فى الناحيـــة الاخرى من ارباض المدينة ..

واذا لم يسعفنى وقت الفراغ ، كنت اكتفى بالتجوال فيما بين ضاحية سلامبو وقرطاج لأزور آثار البونيقيين، ولم يبق منها الا القليل .. بعض المدافن ، ومعبد ربة

الفينيقيين « تانيت » وربهم « بعل حمون » وآثار الرومان وقد انتهوا الى القضاء على قرطاجة ، كخاتمة للحروب البونيقية بعد أن درج كاتون القديم فى مجلس شيوخ روما على تكرار تحريضه : « مهما كان الامر ففى ظنى يجب تدمير قرطاجة (كارتاجينم اسى ديلندم) » .

واعرج على قرية سيدى أبو سعيد أجمل ما عرفت من القرى تنسيقا وموقعا وبساطة ونظافة ..

فى نهاية اقامتى بسلامبو ، سافرت الى القيروان مدينة عقبة بن نافع الفهرى فاتح المغرب ، أزور جامعها الكبير ، وما حوله من مساجد ، أذكر منها المسجد ذا الثلاثة البيبان ، ومسجد أبى زمعة البلوى .

ثم عبرت الى الجزائر لاقضى فيها بضعة أيام قبل العودة الى معملى بالسوربون . وفى الجزائر صدمتنى تجربة الاستعمار الفرنسى فى عاصمة من ابهى عواصم المغرب . اكتفيت منها بالصعود الى « القصبة » للاحساس بأهل البلاد الاصالى ، ولكى اطل على بحرنا من الاعالى . وقد كرهت أن لا أرى لاهل البلاد فى عاصمتهم التاريخية أثرا بين المستعمرين ، فالمسجد الكبير فى المدينة المنخفضة قد تحول الى غير ما أنشىء له ، وغير ذلك من مظاهر عاصمة بمبانيها الفخمة وسكانها ، اقرب الى ان تكون مدينة فرنسية من مدن الجنوب .

وغادرت الجزائر بعد يوم وليلة عندما لم اطق البقاء فى ذلك الجو الاستعمارى الذريع .

وكنت قد عشت فى تونس تجربة استعمارية تركت فى نفسى جرحا عميقا ، عرفت فى زمانها باسم « المؤتمر الافخارستى » شاهدت الرسول الكاثوليكى يستقبله المقيم العام الفرنسى (الحاكم بأمر الجمهورية الفرنسية

العلمانية !) استقبــال الفاتحين .. والسفن الداخلة ميناء تونس تحمل وفود المؤتمر تهزم بالتراتيل اللاتينية، وقد جاءت لتشيــد بذكرى القــديس الصليبى لويس التاسع أسير بيت ابن لقمان بالمنصوره ، والمتوفى بالوباء فى تونس .

ورايت الوفود تقف بتمثال الكاردينــال لافيجرى المستعمر الدينى منصوبا قبل باب تونس الخضراء رافعا الصليب .

كما ذكرت وانا بالجزائر واقعة بســيطة ، حــدثت بباريس ، عندما تداولت بضع كلمات مع طالبة بمدرسة النورمال للموســيقى ونحن ننتظر مجىء الاســتاذ .. عرفت منها بانها « جزائريه » فظننتها عربيــة او قبلية مسلمة ، واجابتنى بالنفى ، وأنها فرنسيه ابا عن جد، مولودة بالجزائر .. سألتها : اذا كنت جزائرية ، فكيف تصفين أهل البــلاد الاصالى ؟ قالت : اوه ! .. انهم العرب .

استعيد هــذه الذكريات الواخزة لاوضح واحدا من حوافز رحلتى الاخيره عبر الشــمال الافريقى ، وهو العوده الى ما تصفه اللغه الرومانتيكية بمراتع الشباب .

أزيح تمثال لافيجرى ، وعاد مسجد الجزائر الــكبير .. مسجدا .

حققت تونس بعد استقلالها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية العجب العجاب اتســاعا ، وعمرانا وحضارة هى الصورة الحية لبلاد تعود الى اهلهــا ، وتنتظم توا فى سلك الحضارة الحديثة .

فهذا المعهد الاقيانوغرافى فى سلامبو اعود اليه بعــد اربعين عاما وأزوره بصحبة العاملين فيه من علماء البحر التونسيين ، يواصلون بحوثهم لانماء الثروة المائية ،

فى جد وكفاية .
والمساجد الاثرية ترمم وتصلح فى تونس والقيروان وغيرها . والآثار والحفائر تتابع فى نشـــاط ، وتنتــا المتاحف المحلية تعرض ما تخرجه بطون الارض .

فالحضارة فى تونس تنتهج السـبيل ذا الشعبتين : الاحتفاظ بتراث الماضى : بونيقيا او رومانيا أو اسلاميا . والسير حثيثا فى مدارج الحضاره المعاصرة مع الحفاظ على اسلوب مميز فى البناء ، وفى الموسيقى والغناء ، يجمع بين المـاضى والحاضر . واستطاعت البـلاد أن تتحول باثارها وطرفاتها وشـطئـانها وجزرها الى بلد سياحى من الدرجه ألاولى ، يؤمه الوافـدون من اوربا وامريكا يمتعون الجسـد والروح بما يقـدمه العمران الحديث من فنادق وشواطىء ومهرجانات ثقافية للسينما والمسرح والموسيقى .. وما يقدمه التـاريخ العريق من اثار العصور السالفة ، وعصر الفتوح الاسلاميه ، فنا وفكرا وأدبا .
كان ما رأيت فى عودتى الى الشمال الافريقى صورة حية « لعودة الروح » فى لغه توفيق الحكيم .

وامسك عما قد يساء فهمه اذا ما حاولت التعبير عما تجيش به نفسى من أسى على بعض مآخذ هذه العودة .

سمعت شـخصين من عامة الشعب فى بلد من بلاد الشمال الافريقى ، أشبه بمثلهما من حى باب سدرة أو باب الشعرية ، فتى وفتاة يتبادلان حديثا خاصــا .. بالفرنسية ، وهذا فى رأيى انكى واقسى من أن يضــطر الـكاتب هناك الى تأليف قصصه وتمثيلياته بتلك اللغة . فلا أقل هنا من ان اولئك الكتاب يدافعون عن قوميتهم ، ويقدمون صورا فنية واجتماعية وتاريخيـــــة لاهلهم وعشيرتهم يطالعها العالم فى لغة اوسع انتشارا وأسهل

منالا من غيرها .

اما آن تتحدث بنت البلد زينب ، الى قريبها أو خطيبها محمد السلامي .. بالفرنسية ، فهذا مما يثور له الضمير القومي . واللائمة فى هذا تقع على المستعمر الحديث الذى قارب فى عتوه واستثاره التشبه بما صنع مستعمرو العصور الخالية بشعوب الأزتك والانكا والهنود الحمر

والحافز الثانى ، والاهم لرحلتى الخاطفة الطويلة عبر اسبانيا والشمال الافريقى هو التقصي العملى للصلات الحضارية بين الدول الاسلامية فى الاندلس وبين بلاد المغرب .

نما هذا الحافز فى نفسى عندما زرت المغرب لاول مرة عام ١٩٥٨ ، فى مؤتمر للدول العربية دعت اليه حكومة المغرب ونظمته اليونسكو . ودعانا صديقنا الكبير الاستاذ محمد الفاسى وزير المعارف فى ذلك الوقت ، ورئيس المؤتمر ، الى حفل موسيقى غنائى كبير بمدينة فاس شاركت فيه جوقات من تطوان وطنجة وفاس والرباط . سمعنا فيه ادوارا نموذجية ؛ وموشحات قديمة ، قيل انها تمثل البواقى الحية من موسيقى الاندلس .

لم أكن زرت الاندلس حتى ذلك الوقت ، وكانت معارفى عنها ضئيلة لا تتعدى حكاية عبور طارق بن زياد المضيق الذى يحمل اسمه ، وحكاية تدمير سفنه ، ولم اقبلها على علاتها ولا صدقت ان طارقا البربرى هو صاحب الخطبة التى حفظناها ، وتبارينا فى القائها بالطريقة التمثيلية الفجة .

وقد تمتد معارفى (؟) الى ما قرأناه جميعا . ورأينا صوره عن قصر الحمراء ، ونهاية أبى عبد الله بخروجه

من ملكه بغرناطة باكيا . فاذا بأمه تعنفه بكلمة من أقصى ما عرف التاريخ . قرأت تاريخ صقر قريش عبد الرحمن الداخل وشذرات عن عبد الرحمن الناصر والطوائف والمرابطين والموحدين ..

أما تاريخ المغرب ذاته ، وحضارته ، وأسره الحاكمة فقد سمعت بها فى تلك الزيارة الاولى ، امام مدافن المرينيين والسعديين ، وهناك قيل لى بأن حضارة الاندلس نبعت من حضارة المغرب ، وان المرابطين والموحدين اقاموا دولهم بالمغرب ، وعبروا المضيق استجابة لمعونة الاندلسيين حين ضيق ملوك قشتالة واراجون عليهم الخناق فى عمليات الاسترداد . فأنجدوهم واستقروا هناك فاتحين جددا .

كما علمت ان تحرير الاسبان لبلادهم نهائيا ، واضطهاد المسلمين واليهود دفع بهؤلاء الى عبور بحر الزقاق الى المغرب حيث استقروا نهائيا ، وما فتئت أسر كثيرة بالمغرب تحمل أسماء أولئك اللاجئين .

الحافز الاكبر للرحلة الطويلة عبر اسبانيا والشمال الافريقى كان اذن : متابعة الوحدة الحضارية بين الاندلس والمغرب الاقصى ..

وما من شك فى ان ذروة هذه الرحلة حول حضارات عزيزة على قلب المشارقة والمغاربة تحققت فى غرناطة ، وقد اختار لى الحظ أن اقيم على قيد خطوات من قصر الحمراء وحصونه ، والمصيف الملكى فى « الخنراليفة » أو ما يعرف « بجنة العريف » .

« وعجيب الزمان غير عجيب » فى قول ابن الرومى : أن أجمع فى خلال بضعة أشهر رحلة الى الفن الاسلامى المغولى بشمالى الهند .. أى ما يكاد يمثل أقصى الفن

الاسلامي شرقا (*) والى الفن الاسلامي بالمغرب والاندلس فيما هو فعلا أقصى امتداد لهذا الفن غربا وشمالا ..

لقد عبر طارق بن زياد الى الاندلس ، فيما يقال ، من طنجة الى الجزيرة ؛ وكانى بزيارتى لاسبانيا من الشمال الى الجنوب ، وعبورى الى المغرب من الجزيرة الى سبته ، سلكت طريق الفتح والخروج لدولة الاسلام فى الاندلس .

ولعلى أستطيع فى هذه المجالات تسجيل انطباعاتى من آثار تلك الحضارة الزاهرة بعد الاطلاع على كتب أعلامنا من « المتغربين » المصريين : المرحوم عبد الحميد العبادى ، والاساتذة محمد عبد الله عنان ، وحسين مؤنس والسيد عبد العزيز سالم وعبد العزيز الاهوانى ومختار العبادى وغيرهم ممن أتحفوا وأثروا المكتبة العربية بمجموعة قيمة حقا من الدراسات المتخصصة مختصرات ومطولات ومترجمات .

(*) سنة ١٩٧٠ . انظر كتاب « سندباد فى هندباد ».

ولا غالب إلا الله

« يقدم الينا التاريخ الاندلسى فى مراحله الاولى ، صفحات باهرات من ضروب المجد الحربى والسياسى ، وآيات ساطعات من ضروب التمـدن والعرفان ، ولكنه يقدم الينـا فى مراحله الاخيرة ، صفحات مشـجية مؤثرة ، من تقلب الجـدود وتعاقب المدن ، والانحدار الى معترك الهزيمة والذلة ...

ولـكن الصراع الطـويل المضطرم الذى خاضـته الامة الاسلامية فى الاندلس ، قبـل ان تستسلم الى قدرها المحتوم ، يبـدو صفحة رائعـة من الاستشهاد المؤثر ، قلمايقدمها الينا تاريخ أمة من الأمم ...

محمد عبد الله عنان :
نهـايـة الاندلس

« ارتفاع شأو الحضـارة الاسلامية وتدهورها واحد من المعـالم الكبرى فى التاريخ .

ولـمدى خمسة قرون ، من سنة ٧٠٠ م حتى سنة ١٢٠٠ م، قاد الاسلام العـالم سؤددا . ونظـاما ، واتسـاع هلك ، وأسلوبا فى الحياة رقيقـا مهذبا .

كما قاده فى نماذج المعيشة ومستوياتها ، وفى التشريعات الانسانية الحانية ، والتسامح الدينى ، وفى مجالات الادب وبحوثه ، وميـادين العلوم ، والطب ، والفلسفة » .

ول ديورانت :
«عصر الايمان»

ما أشبه اليوم ، فوق مرتفعات قصر « الحمراء » وقصبته ، تطل على غرناطة ، بالبارحة وأنا مقبل على مدفن « تاج محل » درة آجرا بشمال الهند .. تشوق

الى الرؤية الواقعة لاثر عرفته منذ مطالع الصبا ، بالرسم والصورة والوصف والصيت . وتوجس ان ينتقص الواقع من روعة التصور ..

وكان الواقع فى الحالين مؤيدا لحقيقة من حقائق الفن .. وهو ان لا خطر من الواقع عندما يبلغ الاثر المعمارى قمة نمطه واسلوبه ، فيكون النموذج الارفع والمثال الاعلى لفن بعينه .

حقيقة تبينتها ووعيتها فى مواجهة « البارتينون » فوق اكروبول أثينا ، وكاتدرائية « شارتر » فى الجنوب الغربى من باريس ، و « تاج محل » بالهند ، وقصر « الحمراء » بالاندلس .

فى شبابى الاول كنت اتقدم الى العمل الفنى الكبير متهيبا ، متفتح أبواب الحماس .. مقدما .. وفى شيخوختى اتصنع الهدوء وعدم المبالاة ، فأكذب على نفسى ، وانما اتلمس وسيلة خارجة عنى ، تعيننى على لقاء عقلى ، يسبق العناق الفنى .

فقد هدأت الممارسة العلمية أجيج الرومانتيكية ، واصبح العقل ، على الرغم من حمى الاحساس ، هو المسيطر وحده . فاذا انفجر الاحساس وتغلب بذاته ، كان لى فى الانفجار عذر ودلالة .

ولجت مع حشد من السائحين ابواب « الحمراء » ، ومررنا بالقصر الدائرى النشاز الذى اقامه شارلكان مزاحما مناكفا لقصر بنى الاحمر ، مع انه القائل يوم اطل من طنف « الحمراء » على الرياض والمياه الجارية : « ما أتعس من شاء له حظه العاثر فقدان كل هذا » ، مشيرا الى ابى عبد الله آخر ملوك غرناطة .

واذا بشحط عتل امريكى يضرب بجماع يديه بابا موصدا من أبواب قصر شارلكان ، ويرفع عقيرته

بالاحتجاج ، ونسعى لتهدئة ثورته ، فيأنس الى ، ويترك الباب ليمشى الى جانبى ، يشكو الاستغلال الفاضح للسياح ، ويخرج بطاقة دخول ليؤكد لى احتواءها على اذن بزيارة قصر شارلكان ، ويقول : هؤلاء الناس لا يقدرون ما يتكلفه السائح من مال وجهد وعناء ليشهد آثارهم . انني حفيت مشيا لازور هذه الروائع ..

قاطعته : ولكنك تطرق باب قصر على هامش ماجئنا لرؤياه ، ولا قيمة ..

واستمر فى كلامه دون ان يعير انتباها الى ما أقول :

ـ حفيت مشيا .. أنظر :

وخلع حذاءه ليشهدنى على خرق واسع يطل كالطاقة المستديرة ، من وسط نعله ..

كتمت ضحكى ، ورثيت لرجل يهذى ، تسلمه الحراس والناس ، ولا أدرى ما صنعوا به فلم أره خلال تجوالى بقاعات « الحمراء » . . .

وعبرت ذاكرتى واقعة بالامم المتحدة ، اشتد فيها غضب رجل كان عظيما فى قومه ، فخلع حذاءه ، وأخذ يضرب به على المنصة فى ايقاعات عنيفة تصاحب خطابه.

وقبل أن اتجه بكافة حواسى الى تأمل «تاج محل» ، استوقفنى فى الحديقة قرد ظريف ، حيينه بالانجليزية : هالو ياكابتن ! .. ويبدو انه استقبل الرتبة راضيا !

لا تتوقع منى ان أفصح عن انفعالى ، أو أن أستعير ثرثرة الادلاء ، وجلها حكايات وأساطير لا تترك لك متنفسا ولا فسحة تأمل .

ومن ذا الذى لا يعرف قصر « الحمراء » أبهاءه ، وعرصاته المكشوفة ، وانسياب الماء منأفواه سباعه ، وخريره فى القنوات . ومن لم ير صور سقوفه وحلياتها ، وتيجان عيدانه ، وزخارف اركانه وحيطانه

.. وكلنا ، حيث نشر الفن الاســـــلامى آثاره شرقا وغربا ، متمرسون بالتنويعات الموسيقية للحن واحـــد يتالف من اقواس ، وخطوط ، واســـــتلاكتيتات ، وسيقان نبات بأزهاره ، ولوحات الخط العربى بأشكاله، تقرأ بسهولة فى حديثها ، وبصعوبة فى قديمها .

وقصر « الحمراء » يجمع بين عمارة وظيفية منطقية فى ابراجه العارية ، وأسواره ، وبين زخارف حيطـانه وعمدانه وقبابه واسقفه ، مقابلة فنية ومعارضـــة بين عمارتين : الذكر والانثى .

كان خاتمة ساحرة للفن الاندلسى ، فن الفروب ، فى عصر ينذر بنهاية الدولة الاسلامية الزهراء ، تقوضت دعائمها ، وانتزع الاسبان أوراقها كالخرشوفة ، بقوة الارادة والتماسك والمثابرة فى مقابل خلافات الاندلسيين عربا يمنيين وشـــواما وبربرا وموالى ، وتطـاحنهم ، وطلابهم العون على أهلهم ، وبنى جلدتهم ، باستعداء عدوهم المتربص بهم ، يضرب بعضهم بالبعض ، ويضيف حزازاتهم القبلية ، واطماعهم الملـكية ، الى اسلحتـــه المدمرة ..

لقـــد استطاع بنو « الاحمر » تأجيـــل النهـــاية ، واستمهال القضاء المحتوم زهاء مائتين وخمسين عاما. ودفع رأس الاسرة محمد بن يوسف . . بن نصر بن قيس الخزرجى ، ثمن ذلك استكانة وخضوعا للعدو ، أو كما يقول الاستاذ محمد عبد الله عنان :

« وعاون ابن الاحمر النصارى فى الاستيلاء على ثغر قادس ، وهكذا بســط القشتاليون سلطانهم على سائر الارض الاسلامية الواقعة غربى ولاية الاندلس، واخذت رقعة الدولة الاسلامية تنكمش بسرعة مروعة .. وكان موقف ابن الاحمر من هذه الحوادث موقفا شاذا مؤلما .

ولو انه كان يقبل هـذا الوضع المؤلم انقاذا لتراث لم يكتمل الرسوخ بعد . . . وهكذا فقدت الاندلس معظم قواعدها التالدة فى بحر ثلاثين عاما فى وابل مروع من الاحداث والمحن ، واستحال الوطن الاندلسي الذى كان قبل قرن فقط ، يشغل نصف الجزيرة الاسبانية ، الى رقعة متواضعة هى مملكة غرناطة .. ونظم شاعر العصر ابو الطيب صالح بن شريف الرندى مرثيته الشهيرة :

لكل شيء اذا ما تم نقصان
فلا يغر بطيب العيش انسان
هى الامور كما شاهدتها دول
من سره زمن ساءته ازمان

... ...

... ...

اعندكم نبأ من اهل اندلس
فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم
اسرى وقتلى فما يهتز انسان

***

قضيت فى قصر « الحمراء » وابراجه وسوره ، اليوم بطوله ، ويوما ثانيا ، ثم ثالثا فى « جنة العريف » ، وكانني انقب عن كنوز مخبوءة تحت الارض كما يجيء فى اساطير وروايات الاسبان الى عهد قريب .

ولا احسب ان فن « الحمراء » ، هو الذى جذبني وحده الى ذلك الاثر العظيم . فلو انني لبثت فى اجرا اكثر من يوم ، لما وجدت فى نفسى دافعا للعودة الى « تاج محل » .

ولكن فى فن « الحمراء » ، وفى لون حجارتها ،

وفى موضعها فوق الهضبة ، وفى ابراجها السامقة العارية ، وفى رياضها ، ومغانى « جنة العريف » ، سحرا خفيا ، ليس مصدره الانفعال الفنى وحده ...

انما أساسه ـ بعد تعمق التحليل لاحساسى ـ هو « حركة التاريخ » ، وكأننى أراها قبل حدوثها ، نذرا رهيبة باقتراب النهاية المفجعة .

و « حركة التاريخ » كلمة كبيرة . فلنتواضع ، ولنعد الى الشعر العربى القديم :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

اجل ، هو ذاك : الجذور الشعرية فى نفوسنا ، تأصلت فى البكاء على الدمن والاطلال . أليست هذه مأساة التاريخ المصرى بطوله فى قرار أرواحنا ؟

وحاشا أن تكون « الحمراء » طللا ، بله الدمن .. فما برحت عروس الزمان ، شاهدة على مجد غابر ، وسؤدد زائل ...

وللحفاظ على هذا الاثر الساحر تاريخ حافل . فقد هزته الزلازل فلم تدك سوى سقف واحد ، وبعد أن سكنه ملوك الاسبان عقب « الاسترداد » .. هجروه واهملوه نفشاه النور واللصوص والمهربون. وفى هذا يقول المستشرق الاسبانى اميليو جارثيا جومث :

« الحمراء فى أكثرها هشة ، مما يجعلنا نتساءل : كيف استطاع الهش المعرض للزوال أن يبقى ؟ » .

وذهب فى تفسير ذلك مذاهب شتى مغلفة بفلسفة غامضة .. انما الذى أهدف اليه هو تحليل نظرتى الى « الحمراء » التى نجح الاسبان فى الحفاظ عليها بالاصلاح والترميم والتهذيب ، واحاطتها بكل ما يحفظ رونقها على الزمان .. أجل ! لسنا أمام بناء عتيق

يتداعي وسط العشـــير ، وصدق جارثيـــا جومث حين قال :

« قصر الحمراء ليس اجمل القصور العربية القديمة فحسب ، ولـكنه أكثرها احتفاظا برونقه ، وأقدمها ، بل هو الوحيد الباقي من العصر الوسيط » .

نظرتي الى « الحمراء » كانت نظرة الحسرة في عيني امرىء القيس وهو يتامل سقط اللوى بين الدخـول وحومل . صعدت اليها تعتمل في نفسي مأساة «خروج» أبي عبد الله ، سليل بني نصر ، على وجهـه ، بعـد تسليم مفاتيحها الى الملك الاسباني ، وتقول الرواية ان ابا عبد الله وقف على أكمة بعيدة يملي ناظره بآخر صورة لملكه ومقر ملـكه ، فخنقتـه العبـرات ، واجهش بالبكاء . فصاحت به أمه عائشة الحرة : « فلتبك بكاء النسـاء ملـكا لم تستطع ان تدافع عنه دفاع الرجال» . وتعرف تلك الاكمة عند الاسبان باسم « زفرة المغربي الاخيرة » .

بهذا الشـعور طالعت شـعار بني نصر يتكرر مئات المرات وسـط زخارف قصر الحمراء « ولا غالب الا الله » . في كافة الاوضاع والاشكال، في دوائر وبيضاويات ومربعـات ومستطيـلات . لا تحوجك لاماته والفـاته الفلابة الى تركيز بصر لتطالعه على القرب والبعد ، في يسر الخط أو تعقيده . وقد تطالع هنا وهناك في تكرار مشابه : « العزة لله وحده » . « الملك لله وحده » ، فلا تضـيق ذرعا بهذا الترداد .. أما الشعر في مدح الامير ، أما آيات الذكر الحكيم ، فهي أقل مما كنت أتوقع .

واذا كان الشعار الفلاب يؤدي دوره الزخرفي احسن الإداء ، في مقابلة فنية للتشـابك « الارابسكي » ..

فقد تساءلت عن العلة فى تكراره ..

لان رنين هذا الشعار فى نفسي يتصل راسا بالنهاية المحزنه . هو عندى نذير بالماساة .. اذ اطالعه وقد بمب فصولا . فى حين ان الأمر ببناء القصر ، أو بزخارفه لم يكشف عنه حجاب الغيب ..

كنت اشعر وسط هذا الجمال المتالق الفتان ، كلما قرات « ولا غالب الا الله » انى اجوب وسط المقابر ، اردد فى نفسى : « البقاء لله وحده » ... « البقاء لله وحده ، هو الحى القيوم » .

وربما اتخذ ترداد الشعار هذا المعنى : لقد فتحنا وظفرنا ، وحكمنا ، ونعمنا . أقمنا حضارة رفيعة واوربا فى غفلة من الزمان ، تعمه فى ظلام العصر الوسيط ، ننشر عليها ، ومن كل ركن فيها ، ضياء ونورا .. كانت لنا الغلبة فى الاولى ، وفى الثانية كانت الغلبة لعدونا .. « ولا غالب الا الله » !

ما أكثر ما بحثت فى صحائف التاريخ عن هذا الشعار النذير ، وكيف اختاره راس الاسرة محمد بن يوسف، .. بن نصر بن قيس الخزرجى .

وكانت الاجابة على قيد صفحات لم أقراها ، من كتاب كنت اتسلى بقصصه وحواديته عن قصر الحمراء دون اخذه ماخذ الجد ـ الفه الكاتب الامريكى واشنطن ايرفنج (١٧٨٣ ـ ١٨٥٩) الذى عاش فى قاعات الحمراء زمانا ، وكان سفير الولايات المتحدة فى ثلاثينات القرن الماضى ، والف كتابا عن «فتح غرناطة» ، وكتابا ثانيا عنوانه « قصص من قصر الحمراء » طالعته دون نظام ، يثقل على باسلوبه المعسل المطوط ، على الرغم من ملكة رومانتيكية فى السرد ، لا بأس بها ابدا ...

ثم تنبهت الى ان آخر فصلين من فصـوله يتحولان عن الاسـاطير ، ليحدثنا الاول عن « محمد بن الاحمر » منشىء الحمراء ، والثانى عن ابى الحجاج يوسف بن ابى الوليد ، من اعظم ملوك بنى نصر، وكان عالما وشاعرا يحمى الآداب والفنون ، وهو الذى أضـــــاف الى « الحمراء » اعظم منشآتها واجملها .

يصف واشنطن ايرفنج عودة محمد بن يوسف الى غرناطة ، بعد ان ساعد الملك فرناندو الـكاثوليكى على فتح اشـــبيلية المسلمين .

فعندما قارب الظافر الحزين بلوغ عاصمته الحبيبة، احتشد الناس احتفاء باميرهم الغالى ، فقد احبوا فيه ولى نعمتهم . واقاموا أقواس النصر على شرف ظفره المؤلم . وكلما مر بحشود النـــاس هتفوا جميعا بحياة المنتصر «الغالب» . فكان محمد بن يوسف يهز راسه ، ويرد على الهـــاتفين ، « ولا غالب الا الله » ، وكانه يستغفر ربه عما دفعته اليه مآزق السياسة ، والحلف الشيطانى مع عدوه .

ومنذ تلك اللحظة ذهب احتجاج ضميره هذا شعارا للملك ، امر بنقشه على رنكه ، واستمر شعارا لخلفائه من بعده .

ما بين الرّصافة والجسر

« والجامع قد كسي ببردة الازدهــاء ، وجلى فى معرض البهاء ، كان شرفاته فلول فى سنان ، أو اشر فى اسنان .. وللذبال تالق كتصنصنة الحيات ، او اشارة السبابة فى التحيات ، قد اترعت من السليط كؤوسها ، ووصلت بمحاجن الحــديد رؤوسها ، ونيطت بسلاسل كالجــذوع القائمة ، او كالثعابين العائمة » .

أفادكم الله يا أبا محمد يابن صاحب الصــلاة
فكاننا يا بدر لا رحنا ... ولا جينا !

« اذا مات عـــالم باشبيليه ، حملت كتبه الى قرطبة ، حتى تباع فيها .

وان مات مطرب بقرطبة ، واريد بيع آلاته ، حملت الى اشبيليه » .

المقرى فى « نفخ الطيب »

كانت اولى مشـــاهداتى لبعض آثار الحضـــارة الاندلسية فى « شنترة » من ضواحى لشبونة (١٩٥٤) ، حصن مغربى بأعلى الجبل ، وقصر فوق سفحه اقيم فى القرن الرابع عشر ، أى لنحو قرنين بعد اســـترداد البرتغاليين لمدينة «أشبونة» . طرازه اسلامى ، يدل فى الاقل على ما كان لفن المغاربة من أثر بعيد على نمط العمارة فى شبه جزيرة ايبريا .

وفى زيارة عابرة لمدريد عام ١٩٥٨ ، خطفت الى طليطلة ، مربوطا بمقود الدليل ، فلم أر من آثارها الاسلامية القليلة سوى النزر اليسير : بقايا الاسوار ، وقنطرة على نهر التاجة (٩٩٧ م فى حكم المنصور بن أبى عامر) .

وفى زيارتى الثانية لاسبانيا (١٩٧١) ركزت على الاندلس ، فعبرت من سان جان ده لوس بفرنسا الى سان سباستيان باسبانيا ، ومنها الى بورجوس (برغش) لادور وازور متعجلا كاتدرائيتها العظيمة ... دون تأثر وفى مدريد عدت الى لوحات فيلاسكيت وجويا بمتحف « البرادو » ... ثم انطلقت الى قرطبة دون توقف .

ويجدر بالزائر العربى اذا خصص اجازة للكشف عن بقايا الحضارة الاندلسية أن يصطحب كتاب الاستاذ عبد الله عنان : « الآثار الاندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال » ، فلم يترك المؤلف حجرا اسلاميا فى الطبيعة أو فى المتاحف دون ذكر أو فحص أو تأمل .

كما يطيب التنويه بكتاب صدر حديثا عن « أثر العرب والاسلام فى النهضة الاوروبية » ، مجموعة دراسات اعدت باشراف مركز تبادل القيم الثقافية بين الشرق والغرب ، متعاونا مع « اليونسكو » .. ففى فصله الاول بحث عميق فى « الادب » ، شارك فى اعداده

الاستاذان : الدكتورة سهير القلماوى ، والدكتور محمد على مكى ، الرجل الذى جمع بين التفقه فى لغته ، واللغة الاسبانية قديمها وحديثها ، فيحدثنا عن «شيوع اللغة اللاتينية الدارجة ، الى جانب العربية بين المسيحيين والمسلمين الاندلسيين ، ثم ماانتج عن ذلك كله من ظهور لون جديد من الشعر الاندلسى فى القرن التاسع

الميلادى - هو الذى عرف بالموشحة ، ومنه تفرع الزجل » .

وعالج الفصل المجموعات القصصية التى وصلت اوربا فى مطلع الرينسانس وتكلم عن الشعر الملحمى والمسرح ، وخاصة ملحمة « السيد كامبيادور » ، واثر الشعر الاندلسى فيها ... الخ

***

قرطبة ! ياله من اسم مجلجل باهر فى تاريخ الحضارات ! .. ومن منا لم يسمع بجامعة قرطبة ، المصباح المنير فى ظلام اوروبا العصور الوسطى .

المدينة التى اتخذها عبد الرحمن الداخل ، صقر قريش ، حاضرة لدولة أموية مجددة ، انشأها بالاندلس ومهد لها حضارة تزهر بالعلماء والفلاسفة والشعراء والفنانين . وزاد فى عزها وسؤددها الفكرى والحربى عبد الرحمن الناصر ، ومن بعده ابنه الحكم المستنصر، ذلك الامير العلامة الذى قيل فيه : « قلما وجد كتاب فى خزانته الا وله فيه قراءة او نظر أو تعليق .. كما كان يقرب العلماء والادباء والمؤرخين ، ويستقدم المشارقة منهم ، مثل أبى على بن القاسم القالى، الذى طرز كتابه « الامالى » باسم الحكم المستنصر بالله » .

وتحضرنى واقعة ظريفة لابن هذا اللغوى الكبير ، وكان الابن أديبا شاعرا ، بنى له أبوه بقرطبة مرتبة ملحوظة .

وكان مقربا على الحاجب المنصور ابن ابى عامر . دخل عليه يوما فقال من أراد ان ينكت عليه : يامولانا ، هذا هو القالى (بمعنى الكاره) ، فرد الكيد الى النحر اطلاقة رصاصة ، اذ قال : القالى لاعداء الحاجب اذلهم الله بعزته .

..ثار فى خاطره أن يرحل الى موطن ابيه ببغداد ، فلما حل بها كذبت عينه ظنه ، فرجع لا يلوى على متعذر ، ولا يمر بغير مستكره عند متكدر ، وأنشد :

أصولى فلما ان حللت ببغداد
رأيت ديارا يبعث الهم لحظها
وقوما يسومون الغريب باحقاد
فوليت عنهم عائدا غير عاطف
وان كان فيما بينهم نشء أجدادى
وجزت على مصر فغمضت مقلتى
وقلت بعنف : مغرب الشمس يا حادى

وكان أشد ما لقيه ببغداد انه حرد يوما بحضرة جماعة منهم ، وأفرط فى سوء الخلق ، فقال احدهم : يا هذا . بئس ما عوضتنا عما نقله ابوك (اى صاحب « الامالى ») من بلدنا الى المغرب ، حمل عنا علما وادبا ، وجئتنا بجهل وسوء أدب . فنهض من حينه قائلا : المشى يلزمنى الى مكة حافيا راجلا ، ان قعدت لكم فى بلد من يومى هذا . وخرج .

اعترضه البواب وقال له : من اين أتيت يا انسان ؟ أجاب بشدة الغيظ : من لعنة الله .. فأوقفه وقال : اصبر حتى استأذن عليك . وكتب بالواقعة الى الوزير . فأشر الوزير البغدادى على المكتوب : لا ينكر هذا الخلق على مغربى فاطلقوه ينصرف الى موضعه الذى ذكر .

من كتاب « المغرب فى حلى المغرب »

***

دخلت قرطبة عصر اليوم الذى غادرت فيه مدريد ، وكان قد وقع اختيارى على الاقامة بفندق من فنادق

الحكومة ، وهى المعروفة باسم « بارادور » ، وكانت فى بدايتها نوعا من « الاستراجات » الحكومية . و « البارادور » - حيث يوجد فى مناطق الآثار - يمتاز دائما بجمال الموقع ، وحسن الادارة وجودة الطعام . ولا يتمكن السائح من الفوز بحجرة فيه الا ان يبكر فى حجزها ، قبل وصوله بأيام .

دفعنى الى اختيار « بارادور الرصافة » اسمه ذو الرنين الشعرى فى نفس اهل اللغة العربية جميعا . يقع فى الربض الشمالى الغربى من المدينة ، وسط الرياض الفناء ، بالموقع الذى أقام فيه صقر قريش ، عبد الرحمن بن معاوية ناحية لنزهته واستجمامه ، سماها « منية الرصافة » ، أسوة برصافة جده هشام ابن عبد الملك ، التى انشأها فى الشمال الشرقى من تدمر بالشام .

كان حنين عبد الرحمن الاموى الى رصافة الشام يستأهل ان يوصف بحنين الغرباء الى الاوطان فى اللغات الاوروبية : « نوستالجيا » .

ويقال بأنه أول ما نزل برصافة قرطبة ، شاهد نخلة اهاجت منه ذلك الحنين الخاص ، فأنشد :

تبدت لنا بين الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت : شبيهى فى التغرب والنوى
وطول ابتعادى عن بنى وعن اهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك فى الاقصاء والمنتأى مثلى
سقاك غوادى المزن من صوبها الذى
يسح ويستمرى السماكين بالويل
وله ايضا :

أيهـا الراكب الميمم أرضى
أقر من بعض السلام لبعضى
ان جسمى كما تراه بأرض
وفؤادى ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا
وطوى البين من جفونى غمضى
قد قضى الله بالبعاد علينا
فعسى باقترابنا سوف يقضى

هـذا هو الامير الاموى طريد بلاده ؛ الهارب من مذبحة أهله ، صقر قريش الذى أعاد مجد بنى امية فى شبه الجزيرة بأقصى المغرب ، فلم يخفف النجاح الباهر من لوعته وتحرقه على وطنه بالمشرق .

وما ان وضعت حقائبى فى « بارادور اروثانا » حتى هرعت منحدرا الى جسر الوادى الكبير «جوادالكفير» لا الوى على شىء فى قرطبة الحديثة « كوردوفا » قبل ان اشاهد المسجد الجامع ، أطوف بسوره وأرتاد مرصاته ، اتوه بين سواريه ؛ رافع الراس الى عقوده المزدوجة ، وما تبقى من محاريبه وقبابه .
حجيج المشوق الى أثر من أمجاد الانسانية عندما تمنق السلام ، وتخلد الى البناء .
حقب نادرة فى حياة الشعوب تسمو بها عن ضراوة الوحوش ، والوحش فى الانسان حى لايموت : معتديا اثيما ، أو مدافعا عن الحمى والزمار كريما . .

هاك اذن ، أيها المنتحى بالرصافة دارا ، هو جامع قرطبة الذى بناه عبد الرحمن الداخل على انقاض كنيسة عوض أصحابها من بيت المال (٧٨٦ م) ، واضاف اليه عبد الرحمن الاوسط حفيده ، فعبد الرحمن الناصر ، وابنه الحكم المستنصر بالله . .

اثرحضاری اسلامی شوهته الحضارة الكاثوليكية ، عندما استأذن اسقف قرطبة الامبراطور شارلكان فى اقامة كنيسة جامعة (كاتدرائية) ، وسط المسجد الجامع ، واذن له .

لم يعرف الخلف : النصارى ، حق السلف : المسلمين . لسبب عجيب فى ذاته ، وان تكرر فى اكثر من موضع من الارض : هو اختلاف الديانة ، بل المذهب او العنصر ، او الارومة ، او ما نريد .

كلا ! « لا تعذليه فان العذل يوجعه » لا تتعجلى اتهامه بالتعصب ، كاتب هذه السطور . فقد حاسب نفسه وساءلها : ماذا كان شعورى ذات يوم من عام ١٩٢٥ ، وانا اجتاز باب « اياصوفيا » واذكر ما صنع محمد الفاتح بالكنيسة العظمى فىعاصمة الامبراطوريه الرومانية الشرقية ، غداة فتحه للقسطنطينية . كان اتاتورك فى ذلك العام قد قضى بان يتحول جامع « اياصوفيا » الى متحف . فازيل الملاط والبياض عن بعض حيطانه وظهرت صور بالفسيفساء (الموزايكه) تمثل الفن البيزنطى فى اروعه .

لم اكن احب للسلطان الفاتح ان يحول مكان عبادة الى عبادة اخرى مع ان العثمانيين لم يصنعوا بذلك الاثر العظيم اكثر كثيرا من اخفاء ، او ازالة ما لايقبله الاسلام من رموز وتصاوير .

ولم ارض ، ولا امنت على ما اتاه محمود الغزنوى بالهندوس ومعابدهم .

لم يكن عدم الرضا علامة تخلخل العقيدة او وهن فيها ، بل كان جرحا لشعورى وايمانى بسماحة الاسلام .

ومن حقى اليوم ان لا ارضى بما اقترفه التعصب

بمسجد قرطبة الجامع ، وبغيره من روائع الآثار بأرض الاندلس .

ولا أعدو فى ذلك ما يقوله علماء نصارى من الاسبان وغيرهم ، وهو ان ما حل بجامع قرطبة عمل همجى شنيع . وحتى الامبراطور نفسه ، الذى أذن لاسقف قرطبة بانشاء الكاتدرائية فى صميم الجامع ، لم يعتم حين راى الصرح الفضولى الضخم ان أبدى سخطه .. وندمه على ما أذن به . ويعزى اليه قوله للمشرفين على تشويه الجامع : « لقد بنيتم هنا ما كان يمكن بناؤه فى أى مكان آخر . وقضيتم بذلك على ماكان أثرا وحيدا فى العالم » .

هذا ما نقله الينا الاستاذ محمد عبد الله عنان ، ويبدو انه شاك مثلى فى ان يصدر هذا القول من شارلكان (قارلة الخامس) ، وهو الآمر بازالة جانب من قصر الحمراء بغرناطة ، ليبنى قصره النشاز على نمط الرينسانس ، كما قوض مسجد الحمراء ، لتقوم مكانه كنيسة .

وقد يعرف القارىء انى كثير الارتياد للمعابد ذات القيمة الفنية ، أيا كانت العقيدة التى ترسم طقوسها . فالمعبد فى كل دين يمثل ارفع وأبلغ ما يحققه الابداع الفنى للانسان ، المتميز عن الحيوان لا بالعقل وحده — ومن الحيوان ما تلوح عليه بعض مخايل النجابة — ولكن بالايمان أيا كان منحاه ومثابته . فلم يعرف الى اليوم مكان عبادة ولا مراسيم صلوات للقرود فى ارقى مراتبها .

ومن الميسور والمألوف ان يعبر المشاهد عن اثر جامع قرطبة فى نفسه ، فيكون الاعجاب بروعته وعظمته . ولكن الغيظ غام على اعجابى ، مثلما خيمت

حيطان المصليات الناشزة على عقود المسجد وسوازيه ، واعشى بصرى انعكاس ضوء الشموع على ذهب حقيقى او زائف .

لم يشـوه مسـجد قرطبـة الجامع بكنيسة كبيرة فحسب ، كان الجامع جديرا بأن يبتلعهـا لقمـة غير سائغة ، بل شوه بعـدد من الـكنائس الصـغيرة أو المصليات يمكن حصرها ، ويرفض حنقى أن يكون لها حصر حتى لو كان عددها أقل أو أكثر من أصابع اليد الواحـدة . فقليلهـا المزوق المزدان ، كثير على الفن الرجولى الفحل الذى يشع من أشلاء جامع قرطبة ، واشلاء ليست التعبير الصحيح ، فجسد العملاق بقرت بطنه جيوش « الليوت » .

ولـكم دمرت آثار وهدمت معابد فى كل مكان وزمان، بيـد الحدثان او الانسـان . فنحن لا نذكر امام « البارتينون » ان أقواما من الهمج جعلوا منه مخزنا للبـارود ، ينفجر ذات يوم فيما يكاد يعتبر حتما . وننعى اختفاء مساجد أثرية فى فتح الشارع ذى البواكى الموصل من العتبة الخضراء حتى القلعة . والمعـابد المصرية التـالدة التى اقتلعت حجارتها لبناء المصـانع البائرة التى أقامها محمد على

ولـكننا نتعزى بما أبقى عليه الزمان من آثار أجدادنا واسلافنا العظام ، فهو شىء قائم بذاته ، كمل او نقص.

اما ان نقف بميدان الرميلة (الاسم التاريخى القديم لميدان صلاح الدين حاليا) وسوق الخيل نتأمل مدرسة السـلطان حسن ، ومسجد امير اخور ، وقلعة صـلاح الدين ، فيقذى العين منظر عمارات شـائهة ، تمثل الجهالة والحمق ، فان للغيظ والحنق هنا الغلبة على الاحسـاس بالفن .

وتصور انك تشاهد جامع قرطبة وقد قضى البلى على بعض أرجائه مما يحدث لكثير من الآثار العظيمة فى العالم القديم والدنيا الجديدة .. انك تأسى لحاله ولكن احساسك بروعة بنائه وجماله ، ينسيك ما صنعته صروف الزمان .

اما ان ترى بعض اركانه ، ووسطه ، تحتلها ابنية مهجنة مستهجنة ، فان احساس الغضب قمين بالطغيان على ما عداه .

ويطيب جراح قلبى ان اطالع كلاما للعلامة الاسبانى المسيحى دون رودريجو فادور دى لوس ريوس ، استهل به كتابه عن المسجد الجامع :

« ان ثمة عالما من الذكريات يملأ مخيلة السائح ، حينما يسرح البصر بشعور من الاسى خلال هذه التشويهات ، تلك الاعمال التى املاها ايمان اجدادنا المفرق المخاص معا ، فدفعتهم الرغبة فى أن يمحوا الى الابد روح محمد ، واطياف أوليائه الذين يغشونها ، وسوف يغشونها ما بقيت قائمة . ذلك انه بالرغم من كل ما اصابها من تشويه وتغيير ، فقد ختم عليها بخاتم الفن الذى أوحى بها وروح الامة التى صممتها واقامتها»

هذا بناقوس يدق

عندما استولى الادفنش (الفونس السادس) ملك قشتالة وليون على طليطلة ، ارتاع المسلمون فى الاندلس قاطبة ، وخفقت قلوبهم رهبة وتوجسا عبر عنه شاعر اندلسي بهذا النعيق :

يا أهل اندلس حثوا مطيتكم
فما المقام بها الا من الغلط
الثوب ينسل من اطرافه وأرى
ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا
كيف الحياة مع الحيات فى سقط

كان سقوط طليطلة اولى حركات الاسترداد الكبرى التى انتهت باخلاء المسلمين عن ملكهم عام ١٤٩٢ م ، سنة اكتشاف كريستوف كولومب للعالم الجديد .

فكان لاستيلاء الفونس السادس عليها سنة ١٠٨٥ م ذات الصدي الذى تردد بين القوط الغربيين «الفيزيقوط» عندما وقعت عاصمتهم ــ توليدو ، أى طليطلة ــ غنيمة للمسلمين ، قبل ذلك بأربعمائة عام.

ولا يقاس معنى ذلك الشعور العام باهمية طليطلة فحسب ، كواحدة من مدن الاندلس العظيمة ، ولكن بالجو الذى اشتمل عملية الاسترداد ، وكان نذيرا بما

سوف يحدث مرارا وتكرارا على مر القرون التالية ، يواصل فيها الاسبان الضغط ، والحصار ، والمؤامرات والمعاهدات المنقوضة ، حتى يقضوا قضاء مبرما على الدولة الاسلامية الباهرة فى جنوب غربى أوربا .

لم يسترد الفونس السادس الحاضرة الكبرى بالحرب والحصار وحدهما ، بل اعانه على ذلك ملكها المدعو « القادر » ، واحد من اضعف ملوك الطوائف ، وصفه ابن بسام صاحب « الذخيرة » ، بأنه « كان آية فى قرب غوره ، امعة امرة ، اجبن من قبرة . ان حزم لم يعزم، وان سدى لم يلحم » .

مج أهل طليطلة حكمه وثاروا به ، فولى الادبار ، وانتهى بما حدث وسوف نحدث طوال سنوات الاسترداد : سعى للعودة الى عرشه ، مستنجدا بملك ليون وقشتالة .. فما عتم هذا أن حاصر المدينة ، وفى ركابه الملك المطرود ، « القادر » على لا شىء ، سوى مصالح نفسه ، يدفع لها ثمنا خيانة شعبه ووطنه .

وعندما ضاق بأهل طليطلة الحصار خرج وفد منهم لمقابلة الملك القشتالى. ووصف ابن بسام المنظر المزرى : « أدخل الوفد على ادفونش ... فاقبل عليهم بوجه كريه ، ولحظ لايشكون أن الشر فيه ، وقال لهم : بأى شىء تطمعون ؟ قالوا : بنا بغية ، ولنا فى فلان وفلان امنية .. وسموا له بعض ملوك الطوائف (اعتمادا على المعونة التى يتوقعونها منهم) .

فصفق بيديه ،وتهافت حتى فحص برجليه ، ثم قال : اين رسل ابن عباد (صاحب اشبيلية) « فجىء بهم يرفلون فى ثياب الخناعة ، وينبسون بالسنة السمع والطاعة .. فقال لهم : مذ كم تحومون على ، وترومون الوصول الى ؟ ومتى عهدكم بفلان ، وأين ماجئتم به ،

لا كنتم ولا كان ؟ فجاءوا بجملة ميرة ، واحضروا بين يديه كل ذخيرة خطيرة . فما زاد على ان ركل كل ذلك برجله ، وامر بانتهابه كله .

« ولم يبق ملك من ملوك الطوائف الا احضر يومئذ رسله ، وكانت حاله حال من كان قبله . وجعل اعلاجه يدفعون فى ظهورهم ، واهل طليـطلة يعجبون من ذل مقامهم ومصـيرهم . فخرج شيختها من عنده ، وقد سقط فى ايديهم ، وطمع كل شيء فيهم . وخلوا بينه وبين البلد لثلاثة ايام من ذلك المشهد ، ودخل طليطلة على حكمه ، واثبت فى عرصتها قدم ظلمه » .

وما ان لبث شهرا فى المدينـة المنكوبة حتى « امر ادفونش بتغيير المسجد الجامع .. وحدثنى من شهد طواغيته نبتدره (اى الجامع) فى يوم اعمى البصائر . وليس فيه الا الشيخ الاستاذ المغامي (محمد بن عيسى) ، آخر من صدر عنه ، واعتمـده فى ذلك اليوم ليتزود منه . وقد أطلق به مردة عفاريتـه (ادفونش) ، وسرعان طواغيته ، وبين يدى الشـيخ أحد التـلامذة يقرا . فكلما قالوا له : عجل ، اشار هو الى تلميـذه بان اكمل .

« ثم قام ، ما طاش ولا تهيب ، فسجد به واقترب ، وبكى عليه مليا وانتحب . والنصارى يعظمون شأنه ، ويهابون مكانه . لم تمتد اليه يد ، ولا عرض له بمكروه احد » .

هذه صورة نموذجية لمآسى « استرداد » الاندلس ، تخيلتها وانا واقف بميدان كاتدرائية اشبيلية ، واحدة من اكبر واعظم كنائس العالم ، احتلت مكان المسجد الجامع الذى هدم وقوض فيما عدا « صومعته » ، اى منارته او مأذنته .

وسطت المنارة ، واستبدل ببعضها الاعلى عمارة للناقوس ، يعلوها تمثال يدور مع الريح ، دوران التاريخ فى تلك البلاد العريقة ، مسيحية أو مسلمة .

للكم هى « الخيرالدا » ، اى الدوارة ، وفىعاميتنا « أبو رياح » .

وعجيب من امرى أن اعزف فى اسبانيا عن زيارة اثر شائه ، كلما قرات فى كتب الادلاء عن قصر او قصبة ، فعرفت ان قد أحدثت فيهـا تعديلات وتحويرات واضافات ، عقب الاستيلاء على ثغور الاندلس الكبرى. فلست الدله بعشق أشلاء الجدران والابواب والعقود، محشورة مطمورة وسط المبانى المجددة على مدى الاعوام والقرون .

انما « الخيرالدا » خريدة أخنىعليها الدهر، مافتىء العشاق يتغزلون فى بهائها . وزعموا ان اهل اشبيلية ، بعد الاسترداد ، مسيحيين ومسلمين ، قاوموا هدم منارة الجامع الزاهرة مع سائره ، فأبقىعلى بعضها ، وبدلوا فى شطرها الاعلى ، وكأنها « مانكان » خشبى بلا راس ، يلبسها الحائك ما يعد من الثياب ، ثم يركب لها الراس المناسب لظروف العرض والبيع والشراء .

رايت اختها الكبرى بالجنوب المغربى قبل ان اشهد « الخيرالدا » فحفظت الود لخريدة مراكش الفتانة بلونها المحمر فى رائع النهار ، ووضح شمس الصحراء ، عند أقدام جبال الاطلس الشماء ، يجللها الجليد الدائم . هى المعروفة بمنارة « الكتبية » ، اسم الجامع الكبير الذى كانت تقوم حواليه حوانيت الوراقين ، مثلما رايت فى صباى « كتبية » الحلوجى تواجه الجدار الغربى للأزهر الشريف .

شاءت محاسن الصدف ان اقيم بفندق يحمل اسم

« المنارة » ، وأن ارى « الـكتبية » من نافذة مخدعى، ما طلعت الشمس او غربت على اجمل مدائن الجنوب المغربى ، مدينـة يوسف بن تاشفين ، مؤسس دولة المرابطين الملثمين .

تراها من كل موضـع بمراكش ، جوهرة تتألق فى سماء عاصمة البربر ، عمودا مربع الاضلاع من نضار، اما « الخيرالدا » ، وزنقتها فى كشح كاتدرالية اشبيلية، فلا سبيل الى تاملها ، الا أن يصيب العابر نافذة تطل عليها من البعد ، وكانت نافذة فندقى تطل هناك على الرياض التى اشتهرت بها المدينة الساحرة على ضفة الوادى الـكبير .

سمعت باسمها لاول مرة من زميل لنا ، ونحن نتامل منارة « الـكتبية » فى زيارتى السابقة لمراكش ، عام ١٩٥٨ ، وكانت « الخيرالدا » على لسان زميلى شيئا يفوق جمالا وروعة منارة مراكش .

واعجبت أخيرا بمنارة اشبيلية اعجابا مهجنا ، على غرار جدها العاثر فيما أصابها وحاطهـا بكل جـديد وغريب عليها ، وكافر بها .

حتى « البرج الذهبى » ، حارس ميـنـاء الوادى الـكبير ، انطفأ نوره فى عينى ، لا يمثل شيئا له علاقة بعصر المعتمد بن عباد ، أو بغير ابن عباد . فانا اليوم ، قطعا ، فى مدينة عصرية ، عاصمة الثراء والحظ والغناء « الهوندو » والرقص « الفلامنكو » . وما كرهت شيئا اكثر من الاثنين ، لا لعيب فيهما أو سوء ، ولـكن ضيقا بنزولهما الى الاسـواق نمرا بملاهى وكباريهات الشرق والغرب ، سلعة رخيصة ، مع انهما من اجمـل وادق بواقى الفن الفولـكلورى فى العالم .

واشبيلية مدينة مصارعى الثيران ، وما كرهت شيئا

اكثر من كرهى لمصارعة الثيران ، لم أر منها الا حفلا في باحة المسرح الروماني بمدينة نيم في البروفانس ، كان اشبه بتمثيلية منه بصراع حقيقي ، اكتشفت امرها بعد نهايتها ، عندما سمعت بعض المتحمسين الفرنسيين يحتجون على صغر سن الثيران التى قدمت ، وقتلت وسحلت الى خارج الحلبة .

وما هو ذلك الصراع غير المتكافىء حتى فى أعظمه ؟ كوكبة من المهرجين الراجلين والراكبين خيولا عجافا ، يرشقون جسد الثور بسهام مريشة ، ويطعنونه بمزاريق طويلة ، فاذا ما كل الوحش جريا ومطاردة وخوارا انفرد به « التوريرو » ـ ولو انفرد به قبل رشق السهام المريشة فى لحمه ، لكان للصراع الرهيب معنى ـ ووقف وتحرك يستثيره بالقباء الاحمر ، ويخفى فى طياته سيفه البتار ، الثور هائج يرغي ويزبد ، و « الزول » يذور على مشط قدميه ، ويجثو على ركبة ونصف فيصرخ الجمهور اعجابا « أوليه ! » ، يتحدى المصارع نحيته الهالكة حتما الا اذا لم تتقبل السيدة العذراء صلاة البطل مفتول العضل ، ممشوق القوام .

كنت فى ذلك الزمان غرا شرها الى المعرفة ، طالعت قصة بلاسكو ايبانيث « الحلبات الدامية » لا لشيء سوى اشتمالها على شرح مفصل واف لقواعد اللعبة الوحشية .

لايفضلن عليها رواية « كارمن » بموسيقى جورج بيزيه ، احفظ الحانها واعرفها من قديم ، وهانذا يتردد على الفور فى راسى غناء كاميللو ، ذلك الديك الرومى ، منفوش الريش ، يدخل على مارش « التوريادور » ، مختالا كالطاووس فى طريقه الى ميدان الصراع . . .

باشبيلية ، منتفخ الصدر والاوداج ، يحب لفافة السجاير ، الفانية كارمن ، صديقة قطاع الطرق والمهربين ، وقد تزيت فى ذلك اليوم بأجمل ملابس الاندلسيات : تغطى رأسها « المانتلا » السوداء ، لتشهد حبيبها « التوريرو » المعظم فى ذروة انتصاره .

لعله انتصر وفاز ، على تصفيق الجماهير المتعطشة للدماء ، اما هى كارمن . فلم يترك لها دون جوزيه ، العشيق المحقر المهجور ، سبيلا الى باب المدرجات ، حاورها محاورة الثور وقضى عليها قبل أن يقضى كاميللو على الثور الهائج .

قتلها باسم الغيرة . الحاسة الحيوانية التى لا تعرف لها قطاطى اسما . ولكن فعلها لا يقل عنفا فيها من عنف العاقل . ابن حوة وآدم ..

لافضان ايضا الاحتفاظ فى صميم روحى بكوميديا بومارشية « حلاق اشبيلية » ، وبموسيقى روسينى ،

وأعز من كل هذا « زواج فيجارو » . اوبرا موزار الخالدة : وفيجارو هو حلاق اشبيلية : رب الحيل .

لا يعنينى من اشبيلية مغانيها ومقاهيها وكهوفها تردد أصداء الهوندو والفلامنكو وطرقعة الصاجات الخشبية وموسيقى الفجر : فلست من ابناء الليل ، ولدت فى الفجر ، أنا سائح رائعة النهار : آوى إلى فراشى مبكرا كالدجاج ، منهكا من السير والمشاهدة والانفعال بالآثار .

نعم زرت كاتدرائية اشبيلية ، افخم ما شهدت من كنائس ، وعبرت غير مكترث بقبر الملكين الكاثوليكيين، وأدرت البصر والخطا حول جدث ذلك الايطالى العظيم ، ابن جنوا ، كريستوف كولومب .

نعم ، تجولت فى حى «سانتاكروث» حواريه وزنقاته

وكنائسه ، ومتعت نظري بأفنيته الغناء « باسيو » ، وبالخضرة تتدلى من الطيقان وتغطى الحيطان ، واصص الورد والريحان مرصوصة فوق الطنف ذات المشتبكات الحديدية كانها سيقان الازاهير .

هكذا أتصور احياء الاندلس عندما كان يسكنها المسلمون من البربر والعرب والصقالبة والموالى ثم اليهود والموريسكو .

ولكنها اليوم مساكن أقوام غير أولئك ، قد يكون من بينهم احفاد مدجنين ومتنصرين . وما على من كل هذا الزيف التاريخي ، وقد عرفت في فاس ومكناس وتلمسان ومراكش الاسلوب الاندلسي في البناء ، وربما في اللباس وقطعا في الموسيقى والغناء ، وفي الدين واللغة .. عالما يتدفق حيوية ويزهو بجمال هو الصدق والاصالة .

فالسائح الباحث عن حضارة « المور » (المغاربة) في الاندلس ، ينبغي أن يضيف العيان الى الاثر ، الاثر في الاندلس ، والعيان البيان في المغرب الاقصى ، سهله وحزنه ، ما بين جبال الريف والاطلس ، وحينما عبرت من اسبانيا الى المغرب ، من الجزيرة (الخثيراس) الى سبته ، عرفت انى انهج بعض طريق المطرودين من جنة الاندلس ، لائذين ببني عمومتهم ، ورأيت لاول مرة صخرة ابن زياد ، وجزت مجازه او بوغازه ، وهو بحر الزقاق قبل أن يحمل اسم القائد المغربى الشهير .

حان أن ننتقل الى بر العدوة ، لنتابع رحلتى البرقية عبر الشمال الافريقى ، وتمثلا بالمذيع الذى يعد السامع الى حفلة « طرب » خارجية ، استأذنه في استعارة حماسه العجيب مناديا :

تالى هناك !

سندباد يبلغ المغرب الأقصى

شكا صديق قديم ، فى عرض حديث عن برامج التعليم بمدارسنا ، من ان ابنته تجهل كل شيء عن المغرب ادناه واوسطه وأقصاه ، وهذا على الرغم من دراستهم لما يعرف بالقومية العربية « من الخليج الى المحيط » . واذا كانت قد سمعت بفتوح العرب للمغرب والاندلس ، فقد توقف استيعابها عند اسمين او ثلاثة من ابطال الفتح العربى : عقبة بن نافع الفهرى ، وموسى ابن نصير ، واضافت اليهما ـ باعتباره عربيا ـ طارقا ابن زياد ، وهو من سبى البربر ، ظفر به موسى فكان من مواليه .

سألها عن « الموحدين » فاجابت بأنهم : المؤمنون بالتوحيد ، فقال لها : وفسر الماء بعد الجهد بالماء ، واتبع بسؤاله : ومن هم « المرابطون » فلم تحر الفتاة جوابا .

قلت له : لو فاجأتنى بالسؤال عن الاخيرين ، قبل ظعنى الاول الى المغرب (١٩٥٨) ؛ لما وجدتنى أفصح من ابنتك ، ذلك لاننا فى مصر ، وفى الركن الشمالى الشرقى من افريقيا ، تقوم ثقافتنا الاسلامية فى معظمها على المشرق دون المغرب .

ولن احاول فى هذا المقال اقامة خلفية تاريخية

للمغرب ، فقد أقنعتنى قراءاتى المطولة نوعا فى تاريخ المغاربة ، قبل الفتح الاسلامى ، وبعده ، بأن تفاصيل هـذا التاريخ فى ذرواته الحضارية والحربية العظيمة، وفى وهاده ومنخفضاته ، معقدة تعقيدا لا سبيـل الى تبسيطه ، فكم من أسر وقبائل ، وأفخاذ من قبائل عربية يمانية ، شامية ، هلالية ، أو قبـائل بربرية صنهاجة ، وزناتة ، وكتامة ، ومصمودة ، وبرغواطة ، ودكالة ، ونفوسة ، ولواته ، ومكناسة ، ومغراوة ، وبنى زيان ، وبنى مرين .. الخ .. الخ ..

وكم من حروب أهليـة ، وغزوات ، وفتـوح واحتلال نورماندى من صقلية ، الى احتلال اسبانى ، وانتقال من الشمال الافريقى عبر بحر الزقاق الى شبه جزيرة أيبيريا ، مجاهدين ، فمستوطنين فمواطنين عادوا كلهم الى افريقيا على وجوههم وقـد اجـلاهم النصارى عن ملك دام سبعمائة عام .

وكم من أسر ملوكية ، وزعامات دينية ، تدوخ من يتابع تقلبـاتها على مدى القـرون ، وطول الشـمال الافريقى ، وعرضـه : من مرابطين وموحدين ومرينيين وأغالبة وحفصيين ، وادارسـة ، وفاطمية ، وخوارج اباضية ، وعبد الواد ، ولن تسعفك الذاكرة ، وسوف يتلخبط كيانك بين ابى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وأبى يوسف يعقوب بن أبى يعقوب يوسف بن عبـد المؤمن ، وأبى يعقوب بن محمد الناصر بن ابى يوسف يعقوب بن أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن .

يجب ان أهرب من كل هذا الحرج الذى اثاره عبورى من الاندلس الى المغرب اثارة فى غير مكانها ، فما أنا الا عابر سبيل ، تهمنى رؤية الغابة ، قبـل ان أتوه بين أشجارها ، أدون انطباعاتى الطائرة ، قبـل ان تضيع

من الذاكرة ؛ لانى اذا حاولت تلخيص هــذا التــاريخ المتشابك المعقد ، ضاعت بهجته ، وانكسر وزنه وايقاعه الحى المتوثب ، وغدوت أشبه بالمؤرخ الذى حمل مؤلفه على ظهور الابل الى العاهل الآمر بكتابته ، وهذا يطالبه على مدى السـنين بايجاز بعد ايجاز . حتى حضرت العاهل الوفاة ، فسأل مؤرخه تلخيصه الاخير . أجابه : لقد ولدوا ، واشتد عودهم ، وجاهدوا ، وظفروا ، ثم اصابتهم الهزيمة ، وذهب ريحهم . رحمـة الله عليك وعليهم اجمعين .

او كما قال يوليوس قيصر فى رسـالته الى مجلس شيوخ روما : حضرت ، ونظرت ، وظفرت . فهل تغنى رسالته المقتضبة عن الاثر الادبى الفريد الذى تركه لنا ذلك القائد الرومانى الاعظم عن حروبه فى غاليا ؟

كان من حسـن الطالع أن بدأت معرفتى بالمغرب الاقصى فى فاس ، اجمل مدنه ، واغناها حضـارة تالدة ، واحتفاء بالعلوم الدينية فى واحدة من أقدم جامعـات العالم ، وهى جامعة القرويين ، وما برحت نبراسـا للعلوم الاسلامية على المذهب المـالـكى .

فقد ركبت الطائرة ذات صباح من عام ١٩٥٨ ، مع وفد مصر الى مؤتمر اللجان القومية العربية لليونسكو ، دعت اليـه الحكومة الملـكية بالمغرب ، وكان الطـريق الايسـر والاسرع فى ذلك الزمان من القاهرة الى باريس ، ومنها الى الرباط ففاس .

افتتحه وخطبه المغفور له الملك محمـد الخامس ، ذلك الوطنى الـكبير الذى لاقى من الاستعمار الفرنسى الضارى ضروبا من الاعنات والابعاد عن العرش والنفى ، فلم تلن له قناة ، وعاد الى سدة عرشه بقوة شعبه ، عامته وخاصته . جرى حفل الافتتاح فى قاعة الاحتفالات

بمدرسة مولاى أدريس ، وعلى قيد خطوات من جامعة القرويين ، وتحدث عن الوفود المرحوم الاستاذ محمد شفيق غربال، مندوب الجامعة العربية ، وتراس المؤتمر صديقنا الكبير الاستاذ محمد الفاسى وزير التهذيب الوطنى والشبيبة والرياضة والفنون الجميلة حينذاك.

وانزلتنا الحكومة الشريفية احسن منزل ، وافاضت علينا من كرمها وحبها ما لانوفيه بلسان ، فقد حرصت على ان تسير بنا فى معارج فاس القديمة ، وغيرها من بلاد المغرب ، نتلقى تحيات أهلها ، تزدحم بهم طرقاتها، وبطحاواتها ، ذات الجمال الساحر فى اصالتها ، ودعانا الاهل والصحاب المغاربة الى عقر دورهم ، وحسن ضيافتهم يسبغون علينا من فيض كرمهم ونبل خلقهم ، ما تدوم ذكراه على مدى الايام ، واستاذن هنا فى الانتفاع بما سجلته عقب عودتى الى مصر من انطباعات عن حفل موسيقى بمنزل السيد أحمد مكوار بساحة البطحاء .

ففى الصفحة الاولى من الكتيب الذى وزع علينا بعد العشاء ــ وفن الطهى المغربى شىء هائل يجل عن الوصف ــ جاءت هذه الكلمات :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. تفتتح السهرة الموسيقية بكلمة صاحب المعالى الاستاذ السيد محمد الفاسى :

ا ــ جوق الاذاعة الوطنية المغربية برئاسة السيد احمد الوليلى .

ب ــ جوق المعهد الموسيقى بتطوان برئاسة النابغة السيد محمد التلمسانى .

ج ــ جوق المرحوم البريهى بفاس ، برئاسة العبقرى السيد عبد الكريم الرايس .

١ ـ « مشاليت » من طبع (اى مقام) « الحجاز الشرقى » .
٢ ـ « التواشى (كذا) السبع » من طبع « الحجاز الشرقى » » .

قضينا الليل حتى مطلع الفجر نستمع الى ما يقرب من الخمسين منشدا وعازفا يتداولون أداء الموشحات والازجال والدوبيت ، أداء المؤمنين بفنهم ، الاحياء فى تاريخهم القريب والبعيد .

يا من له أحسن الصفات
يا غصن آس ويا قمر
غبت عنا فلم يات منك آت
فاستوحش السمع والبصر
لولا الصبا من تلك الجهات
لذاب جسمى من الفكر
يا ايها الطالع السعيد
جاءت بأنبائك الرياح
ان الصبا عنك أخبرتنى
فاهتز روض المنى وفاح

ثم هذا الزجل :

وحسنك اشتهر فى غرناطة وحدك
يا زين الصفار
نعم فى السهر تسقى الملاح بيدك
كؤوس العقار
وحين تنقر الوتر يشرق حينا خدك
كشمس النهار
وخلى قريب ، وعيشى يطيب
ودع الرقيب ، فى قصده يخيب
عن بصرى يغيب

قوة الايحاء فى هـذه الموسـيقى ! شـبابى يعود الى مزدانا بكل ما يضفيه عليه خيال السنين الغابرة ، لأن هؤلاء المغنين والعازفين أكثر احساسا بما ينشدون ، ممن سمعتهم فى طفولتى ، أولئك كانوا يغنون كأنهم فى غفوة ، دون اقتناع ، وهؤلاء يعيشون تاريخهم الطويل، فيذكرون انهم فتحوا الاندلس ، ثم خرجوا من الاندلس، الى قطاعهم الجنوبى ، ولـكنهم فى هجرتهم حملوا معهم دينهم ، ولغتهم ، وقوميتهم . . . وكنزهم الموسيـقى الغالى : هذه التواشيح .

يعيش أهل المغرب الاقصى تاريخهم عندما يجتمعون ليغنوا اندلسـياتهم الجميلة ، بمصـاحبة الآلات التقليدية ، وغيرها ، فهم لايتزمتون للناى ولا للرباب ، ويضيفون الى التخت الاندلسى آلات البيانو والشللو والـكلارينت والسـاكسفون ، ويسـتبدلون بالنـاى الفـلوت ، وبالرباب الـكمنجة ، وان كانوا يمسـكونها واقفة كالرباب ..

وتعبيرهم الموسـيقى خلو من التخنث والتكسر والطراوة ، يبعث فيك النشاط وحب الحياة ، بدل أن يحرضك على النعاس .. والهيام والاستسلام .

وطريقـة غنائهم الجمـاعى فيهـا تلوين جميـل ، فالاصوات لا تشترك جميعهـا طول الوقت : يسكت بعضها آنا فيهدأ النغم ، ويغنى الجميع آنا آخر فترتفع حرارة النغم ، واذا بصوت رجل واحد يعلو على الجميع فى طبقة نسائية اللون ، تعرف فى الغناء الاوربى بصوت الرجال « الفالستو » ، فتحس كأن ألحان التوشيحة تعلوها ألسنة من اللهب ، هى الصورة الذهنية للوجد والصبابة ونار العشق .

وكذلك هم فى التوزيع بين الآلات ، دون أن يخرجوا

عن الاجماع الميلودى البحت .

كنت وانا استمع ، اطالع فى الوقت نفسه نقوش البهو الذى جلسنا فيه ، فتتحرك عيناى مع تلك الاقواس والمقرنصات والصفف ، وتنزلق فوق الزليج الاخضر والازرق ، ثم تنتقل الى خوان الحلوى، وقماقم الطيب ، والاباريق الفضية التى يملأون لنا منها كئوس الشراب الطهور .

فأنا املأ عينى وسمعى وقلبى بهذا الفن المغربى الاصيل ، يحتفظون به الى اليوم ، ويعيشون فيه ، ويبنون قصورهم الحديثة على اسلوبه ، فكأنك بين ظهرانيهم تحيا فى قصور اسبانيا ، وتصهر « غصن الاندلس الرطيب » ؛ ولا تراها مجرد متاحف ، كأنها الطلل البالى .

ليلتنا فى منزل السيد أحمد مكوار بفاس ، لم تكن من ليالى العصر الحاضر ، والموسيقى الاندلسية فتحت طاقات خيالى ، فاذا بى أستوحى منارتى «الكتبية» و « الخيرالدا » وقصر الحمراء وجامع قرطبة ، وبوابات طليطلة ، وبرج حسان ، بل أنا أعيش فى القصص الشعبية المصرية التى تحدثنا عن « تغريبة بنى هلال » و « خضرة الشريفة » و . . و . . « هلا هلا يا بدوى جاب اليسرى (الاسرى) » .

سرت مع موسى بن نصير الى مدينة النحاس ، بعد ان صحبنى عقبة بن نافع الى مدينة القيروان، ورافقت « المغررين » لاكتشاف بحر الظلمات ، حتى بلغنا الجزائر السعيدة «فرطناتس» ، والتى تحرف « ألف ليلة » اسمها من جزائر الخالدات الى جزائر خالدان ، حيث حكم الملك شهرمان ، أبو قمر الزمان .

وعندما : « طلع البدر علينا من ثنيات وداع » ،

ختمت الاصوات مجتمعة بشــدرات من درج « نوبة رمل المايه » :

الله عظم قــدر جاه محمـــــد
وأناله فضـــــلا لديه عظيـــما
فى محكم التنزيل قال لخلقـــه :
صلوا عليه وســـلموا تســليما

والالحان الختامية هذه انشدت فى ايقاع دينى جليل، وكانت شطرة « صلوا عليه وسلموا تسليما » ، صلاة حارة تجيش بها نفوس محبة وامقة .

***

لم اكن رايت اندلس فى ذلك الوقت وان عرفتها فى الصور والـكتب والسينما .

واشــهد ان رحلتى الاخيرة (١٩٧١) من الاندلس الى الشمال الافريقى ، كانت بنت تلك الليلة الموسيقية فى بيت مغربى كريم .

ولذلك حرصت على زيارة صديقنا الـكبير ، وزير الدولة ، الاستاذ محمد الفاسى ، فى مكتبه بوزارة الدولة المـكلفة بالشئون الثقافية ، و « التعليم الاصلى » ، وكان محور حديثنا هو موسيقى «بلاد المغرب السعيدة» ونفحاتها الاندلسـية .

جـادك الغيـث اذا الغيـث همى
يا زمان الوصـــــل بالاندلس

فذلكة المرابطين الملثمين

بنو الحرب غذتهم لبان ثديها فلم يستطيبوا منه الا العلقما
يحثون للهيجاء جردا سلاهبا وينضون في البيداء بذلا صلادما
اذا طعنوا بالسمهرية خلتهم ضراغم تفرى بالقلوب اراقما
وان كر منهم ذو لثام مصمم غدا لفم الهيجاء بالسيف لاثما

« ابن حمديس الاندلسى »

قلت ان رحلتى عام ١٩٧١ من الاندلس الى الشمال الافريقى كانت بنت ليلة موسيقية فى بيت رجل كريم من فاس ، استمعنا فيها الى الموشحات الأندلسية المغربية أو ما يسميه الافرنج عادة بالفن «الموريسكى» ، نسبة الى « المور » ، وهم المغاربة .

وابديت الشك فى قدرتى على تلخيص تاريخ المغرب الكبير ، ثم عدت بعد الانتهاء من كتابة ذلك الفصل الوم نفسى على التخلف والنكوص ، بل الهروب السهل امام صعوبة يجب التغلب عليها ، لا سيما واننى لم اجب عن سؤال صديق لى القاه على ابنته التلميذة بالثانوية العامة ، فلم تتمكن من الاجابة ، كان السؤال : من هم المرابطون ؟

وهو سؤال لايكفى فيه مجرد التعريف بهم خارج الاحداث التى نشأوا فيها ، والبقاع التى خرجوا منها ليشيدوا امبراطورية اسلامية عظمى تبدا من الجزائر

حتى بحر الظلمات ، ومن الاندلس حتى بلاد السنغال.
وفيما أنا احاسب نفسي على هروبي من تلخيص تاريخ طويل معقد ، اهتديت الى انني قد أيسر الامر لو ركزت على تاريخ المغرب الاقصى وحده ، فمصدر الصعوبة هو ان تاريخ المغرب الكبير متشعب متفكك ، يتناول تاريخ الشمال الافريقي في كل ما يلي مصر غربا ، بدءا ببرقة وطرابلس ؛ وانتهاء بمدينة أسفي على المحيط الاطلنطي غربا ، وأود هنا تذكير القارىء بأن الفتوح الاسلامية لبلاد المغرب استغرقت نحو سبعين سنة ، مع ان فتح العرب لمصر والشام والعراق وفارس تم في اقل من عشر سنوات .

وبين يدي دراسة تاريخية عمرانية أثرية عنوانها : « المغرب الكبير ـ العصر الاسلامي » تأليف الاستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم (١٩٦٦) يحتويها مجلد ضخم يقع في نحو الف صفحة ؛ يصفه مؤلفه بانه « عرض سريع (كذا) لتاريخ المغرب في العصر الاسلامي، وخلاصة دراسة قمت بها في بلاد المغرب والاندلس» ، علما بأن هذه الدراسة تقف عند دولة « الموحدين » اي حوالى سنة ١٢٦٩ ميلادية .

سأقصر مقالي ، اذن ، على شطيرة من تاريخ المغرب الاقصى ، من بدء انتشار الاسلام في انحائه على يد اسرة الادارسة ، حتى عصر المرابطين ، فيما أسميه سخرية بنفسي : تلخيص التلخيص المختزل .

***

انفصل المغرب الاقصى عن الامبراطورية الاسلامية في الشرق ، وكان العباسيون قليلي الاحتفاء بتلك الاقطار النائية ، فأصبحت القيروان ، حاضرة افريقية (اي القطر التونسي حالا) ، وقرطبة حاضرة الاندلس ،

وسيرتفع منار جديد للحضارة في وسط المغرب الاقصى ، ما فتيء مضيئا حتى اليوم بمدينة فاس ، انشأها عربي (ادريس بن عبد الله بن الحسن ، حفيد علي بن ابي طالب) خرج على العباسيين مع العلويين بمكة والمدينة تحت زعامة ابن اخيه الحسين ، وتمكن بعد هزيمة العلويين على يد الخليفة الهادي ، من الهرب الى مصر ، ومنهـا رحل الى الشمال الافريقي ، بحيث انتهى ضيفا عزيزا على قبيلة « الاوربية » بمدينة وليلي (فولوبليس الرومان) ، فولوه الامامة ، وأخذ في نشر الدعوة الاسـلامية بين ظهرانيهم ، والقبـائل البربرية الاخرى ، ويقول الرواة بأن هارون الرشيد انفذ اليه جاسوسا سفاحا في صورة لاجيء نجح في اجتذاب ثقة الامام الادريسي ، فدس له السم القاتل (٧٩٢ م) .

توفي مولاي ادريس دون ولد ، ولـكنه ترك جارية من البربر حاملا في شهرها السابع ، وقررت قبـائل البربر ، ان وضعت غلاما ، كفلوه ثم بايعوه لخلافة ابيه ، ونشأ غلاما كثير الشبه بابيه فسمي باسمه .

وادريس الثاني هـذا هو منشيء مدينة فاس، ولكن المؤرخين اختلفوا فيما اذا كان ادريس الاول قد شرع في تأسيس المدينة ، ثم اكملها ابنه ، وقد اثبت المستشرق الفرنسي ليفي ـ بروفنسال تفاصيل هـذا الانشـاء مقاسمة بين الادريسين : الاول، والثاني ، وكانت المدينة تتألف من قسمين : أحدهما يعرف بعدوة الاندلسيين، اسكنهم ادريس الثاني عنـدما وفدوا عليه لاجئين من اضطهاد امرائهم ، والآخر يعرف بعـدوة القرويين ، وسور كل قسم بسور خاص ، يجرى بينهما وادي فاس ثم ضم القسمان واحيطـا بسور واحد ، فكانت فاس

الزهراء التى احتفظت الى اليوم بطـابعها التاريخى ، وسبقها الحضارى ، علما وفنا وادبا وصناعة ، وان لم تقم دائما كعاصمة للمغرب الاقصى ، فبعض السلاطين اقاموا عاصمتهم بمكناس ، وانشـأ المرابطون مدينـة مراكش حاضرة لامبراطوريتهم ، وكذلك الموحدون .

واذا كانت مدينة الرباط اليوم هى عاصمة الحكومة الشريفية ، فما برحت فاس المدينـة الفنيـة بآثارها وتحفها ، ومدارسها ، تضمها جامعة « القرويين » ، من أقدم جامعات العالم ، وبثروتها الزراعية فى صقعها وفحصها .

انتهت دولة الادارسة عام ٩٢٠ م ، وتلاها فى الحكم بعد فترة طويلة ، دولة المرابطـين ، واذا كانت أسرة الادارسة عربية الارومة ، ترتد فى اصولها الى العلويين، فان أسرة المرابطين كانت من البربر الخلص ، خرجت من قبائل صنهاجة الجنوب ، الضاربة فى الصحراء : وتولت لمتونه زعامة قبائل جدالة ومسوفه ، ثم انتقلت الرئاسة الى جدالة يتزعمها يحيى بن ابراهيم ؛ وكان رجلا شـديد الاحســاس بنقص التعاليم الدينيـة فى الصنهاجة ، وحاجتهم الى من يتولى تثقيفهم ، وتهذيب طباعهم ، وكانت حجته الى مكة والمدينـة فتحا مبينا لقبائل البربر ، فما أن عاد يحيى الى أهله حتى استدعى فقيها من سجلماسة بأقصى الجنوب ، من أرباب العلم والتقوى ، اسمه عبد الله بن ياسين ، ليؤدى رسـالة الاسلام الصحيحة بين مسلمين على البـداوة وخشونة الطبع .

وفى مضــارب لمتونة بدا عبـد الله دروس الدعوة والارشاد الى أصول الدين الصحيحة ، وعنى فيما عنى

بدعوتهم وارشادهم الى السلوك السليم ومحاسن الاخلاق .

ضاقت لمتونة ذرعا بهذه التعاليم الصارمة التى لا تتفق مع حياة اولئك البدو الملثمين، ومدارها الاعتداء والبغى ، وارتكاب المعاصى دون رادع من خلق او دين، وما ان مات زعيمهم يحيى بن ابراهيم الجدالى ، ولم يتمكن خليفته يحيى بن عمر من كبح جماحهم ، حتى اخرجوا عنهم المرشد الامين ، فتبعه اميرهم يحيى بن عمر ، مصطحبا شقيقه أبا بكر بن عمر ، واتجهوا جنوبا نحو السنغال ، ومعهم سبعة رجال من جدالة ، ويرجح المؤرخون انهم اختلوا فوق ربوة محاطة بالماء ، انفردوا فى غياضها منقطعين للعبادة ، واسس عبد الله هناك رباطا .

والرباط من المرابطة ، اى ملازمة مكان للجهاد حيث ترابط خيل المجاهدين ، من قوله تعالى : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ، ومن قوله جل وعلا : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

والرباط حصن منيع للتعبد ، ومسلحة ، ومركز تدريب حربى عنيف للجهاد والغزو، ولايعرف المؤرخون على التحقيق موضع هذا الرباط الاول لزعماء الصنهاجة ومبعث دولة المرابطين العظمى .

انضم الى الفئة القليلة من العباد المجاهدين ، كل من تاب عن مسالك الصنهاجة ، حتى بلغوا الالف عدا ، فقرر عبد الله بن ياسين الخروج بهم لاخضاع بربر الصحراء لصرامة الشريعة الغراء .

واصبح الالف راس الحربة لمجموعة مترابطة ، تالفت

من قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة ، واستولت على سلجماسة ، فواحات الجنوب الغربى فالسوس الاعلى والادنى .

كان جهادا شاقا مكللا بالظفر ، وان سقط فى ساحته القائد يحيى بن ابراهيم واخوه ابو بكر والراس المدبر لجمع شمل المرابطين : عبد الله بن ياسين .

وفى عام ١٠٦٠ م بلغ المرابطون سهول الاطلانطى بزعامة يوسف بن تاشفين الذى جمع فى شخصه بطولة الاميرين المحاربين ، وعقل المدبر : عبد الله بن ياسين .

تولى يوسف بن تاشفين الزعامة فى سن الخمسين ، وحكم دولة المرابطين خمسين عاما أخرى ، حكمها بصرامة المتدين القانت ، واتساع أفق القائد وحيلته ، وقد رأى أن يقيم مركزا لدعوته وقيادته عند أقدام جبال الاطلس فكانت مراكش ، انشأها سنة ١٠٦٢ م ، ومنها أخذ يستولى على المغرب الاقصى كله ، ومساحة واسعة من المغرب الاوسط (الجزائر) ، ولم يتخل عن تحركاته نحو السنغال جنوبا ، فلم يحل عام ١٠٨٦ حتى كانت دولة الملثمين قد امتدت من بعض الجزائر شرقا ، حتى المحيط الاطلسى غربا ، ومن السنغال جنوبا حتى بلاد الريف المطلة على بحر الزقاق شمالا .

وفى ذلك العام عبر يوسف بن تاشفين وجيشه الى عدوة الاندلس ، واحتل الجزيرة الخضراء لتموينه ، وضمانا لخط مواصلاته مع المغرب ، وكان الفونسو السادس ، رئيس الحلف القشتالى ، قد اقسم ليحشدن من الجنود بعدد شعر رأسه ، حتى يبلغ بحر الزقاق ويزيح الاسلام عن شبه الجزيرة الايبرية قاطبة .

كان عبور ابن تاشفين ، زعيم المرابطين الملثمين ، و « أمير المسلمين » الى العدوة تلبية لاستنجاد المعتمد

ابن عباد صاحب أشبيلية ، وهنا نورد واقعة مؤثرة استشار فيها المعتمد ابنه الرشيد ابا الحسن عبد الله قائلا : « انا في هذه الاندلس غريب بين بحر مظلم ، وعدو مجرم ، وليس لنا ولي ولا ناصر الا الله تعالى . وان اخواننا وجيراننا ملوك الاندلس (اي الطوائف) ليس فيهم ولا يرجى منهم نصرة ولا حيلة ان نزل بنا مصاب ، أو نالنا عدو ، وهذا اللعين ادفنش (الفونسو) وقد أخذ طليطلة من ابن ذي النون بعد سبع سنين ، وعادت دار كفر ، وها هو قد رفع راسه الينا ، وان نزل علينا كما نزل بطليطلة ، فانه ما يرفع عنا حتى يأخذ اشبيلية ، ونرى من الرأى أن تبعث الى هذه الصحراء وملك العدوة نستدعيه للجواز ، ليدفع عنا هذا الكلب اللعين ، اذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا ، فقد تلف لحاؤنا ، وتدبرت بل وتبردت أجنادنا ، واجتنبتنا العامة والخاصة » .

اجابه الرشيد : « يا ابت ، اندخل علينا في اندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا » .

قال ابن عباد : « أي بني ، والله لايسمع عني أبدا اني اعدت الاندلس الى دار كفر ، ولا للنصارى لتقوم على اللعنة في منابر الاسلام ، مثلما قامت على غيري . وحرز الجمال عندي ، والله ، خير من حرز الخنازير »

وكان من امر نجدة أكبر المسلمين ابن تاشفين لابن عباد ان تم للأندلسيين والملثمين المرابطين الانتصار الساحق الماحق على الادفنش وجيشه الجرار في معركة كبرى تعرف « بالزلاقة . » .

واذا كانت المحنة تربط الناس برباط الاخوة في السلاح ، فالنصر كثيرا ما يعيد الى النفوس توجسها وحزازاتها النائمة (راجع ختام الحرب العالمية الثانية

.. وما بعدها .) وقد حاول اهل الشر فى الفريقين المرابطين والاندلسيين ، الايقاع بين ابن تاشفين وابن عباد ، واستطاع الرجلان الكبيران ترك امر ذلك حتى يأتى الله امرا كان مفعولا .

وواقع الامر ان امير المرابطين كان قد احس بما يملأ نفوس الطوائف من اثرة وحرص على ملكهم بأى ثمن، كما رأى فى ترفهم وترديهم فى الملذات الحسية وارتكاب المعاصى ما تمجه نفس البربرى المتقشف ابن الصحراء صادق العقيدة ، وأدرك أن من واجبه مستقبلا الضرب على ايدى أولئك الصغار المتناحرين على فتات ممالكهم. فعاد الى الاندلس المرة تلو المرة حتى انتهى الى الاستيلاء على ثغورها .

***

واورث يوسف بن تاشفين ابنه دولة كبرى امتدت فى مطلع القرن الثانى عشر الميلادى من الجزائر حتى المحيط الاطلنطى ، ومن سرقسطة فى الاندلس وجزائر البليار شمالا حتى السنغال جنوبا .

خمسون عاما قضاها المرابط الاعظم فى جهاد وغزو وحرب وتدبير سياسة ، وتنظيم ملك واسع ، واقامة منشآت دينية ومدنية فى مراكش ، وفاس ومكناس وتلمسان ، وغيرها من بلاد المغرب الاقصى والاوسط .

ويطيب لى أن اختم هذه الفذلكة الجادة بدعابة قد تكون من آثار التندر على قصور فهم ابن تاشفين امير المسلمين البربرى للسان العربى :

فقد ذكر ابو اليد الشقندى فى رسالته عن فضائل الاندلس ، ان المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية كتب الى يوسف بن تاشفين ، بعد انصرافه الى حضرة ملكه ، رسالة تمثل فيها بشعر ابن زيدون :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا
شوقا اليكم ولا جفت ماقينا
حالت لبعدكم ايامنا فغدت
سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

فلما قرىء هذان البيتان على كبير المرابطين ، قال : يطلب منا جوارى سودا وبيضا .

فأجاب القارىء : « لا يامولانا ، ما اراد الا ان ليله كان بقرب امير المسلمين نهارا ، لان ليالى السرور بيض ، فعاد نهاره ليلا ، لان ليالى الحزن ليال سود » .

قال يوسف : والله ، مليح . اكتب له فى جوابه : ان دموعنا تجرى عليه ، ورءوسنا توجعنا بعده . .

عظيم عظماء صنهاجة
بين المغرب والأندلس

ختمت الفصل السابق بمداعبة رجل البربر العظيم و « أمير المسلمين » يوسف بن تاشفين ، مؤسس وحدة المغرب الاقصى ، تلك الوحدة التى صقلت شعبه ، وميزته بوضع خاص على بقية شعوب المغرب الاسلامى وفى هذا يقول المستعرب الفرنسى ، المؤرخ العلامة ليفى ـ بروفنسال :

« هناك حدود لم تتغير اطلاقا فى مجموعها ، تفصل المغرب الاقصى عن بقية شمال افريقيا منذ قرون عدة ، وليست هذه الحدود مجرد حاجز طبيعى ، أو سلسلة من الجبال ، أو مجرى مياه ، وانما هى ، شأنها فى ذلك شأن الحدود التى تقوم بين الدول ، سياسية بوجه خاص ، فهى تحدد على الاقل فى نطاقها الشمالى أقصى النقط التى بلغها التقدم التركى بالجزائر فى العصر الحديث .. وكذلك يوجد الى الشرق فيما بين المغرب الاقصى وبقية الشمال الافريقى، فاصل طبيعى، ومن المستطاع ادراك ما بين القطرين من فوارق فى الكيان الجغرافى والمناخ ، وبالتالى فى نوع الحياة التى يحياها السكان .

« أما الاختلافات الاجتماعية والسياسية ، فلا يمكن انكار وجودها رغم الوحدة الدينية فى المغرب كله ،

ولكن هذه الاختلافات لم يبدأ ظهورها فى التاريخ الا منذ نهاية العصر الوسيط ، اى من اللحظة التى صارت فيها بلاد المغرب الاقصى الدولة الوحيدة المستقلة فى شمالى افريقيا ، والدولة الوحيده التى لم تقع تحت سلطان دوله اسلامية اخرى .. ففى ماضى بلاد المغرب الاسلامى ، تؤلف تلك البلاد مجموعة منفردة بذاتها منذ اقدم عصور تاريخها .

« . . . كان يسيطر على تاريخ المغرب الاقصى دفع مزدوج من الفاتحين ومؤسسى الدول ، دفع المرابطين، ودفع الموحدين ، وقد كان لهذين اللفظين .. حق الذكر فى لسان اوربا منذ زمن بعيد . . . اظهر امارة دالة على الدهشة التى اصابت امراء النصارى وملوكهم فى شبه الجزيرة الايبرية حيال ما لا سبيل الى صده من سطوة أولئك البربر الذين راحت جماعاتهم الواحدة تلو الاخرى ، تنزل بهم الهزائم المدوية في أوربا ذاتها .. فالمرابطون والموحدون يدوى اسماهما كأنهما من اسماء الرعب فى مصنفات التاريخ اللاتينية التى تروى اخبار الاسترداد ..

« . . . فالمرابطون ، أولئك الملثمون ابناء الصحراء الذين لم يلبثوا ان تهذبت نفوسهم بحيث اضطلعوا بدور الملوك الصيد ، ثم لم يلبثوا أن تأثروا بالحضارة الاسبانية فى الاندلس ، ولم يكن هذا شأن الفارس البربرى العظيم يوسف بن تاشفين ، وانما كان شأن ابنه على بن يوسف الذى استهل حكمه بحقبة طويلة من الرخاء والازدهار . . . لقد كان اسم على بن يوسف ، منذ توليه امارة المسلمين (سنة ١١٠٦ م) ولم تتجاوز سنه الثالثة والعشرين ، يذكر على الفين وثلاثمائة منبر فى مساجد المغرب الاقصى والاندلس ،

وامتد سلطانه من بجاية (بالجزائر ، وكانت تسمى أيام الاستعمار الفرنسى : بوجى) الى السوس الاقصى ؛ ومن تافيللت الى السودان ، كما كان يخضع له جنوب شبه جزيرة ايبريا بأجمعه ، ويمتد حكم عماله الى جزر البليار ، وذلك كله بفضل جهاد ابيه يوسف بن تاشفين . وكانت دولة المرابطين فى اوجها ، والاسرة البربرية تزداد على مر الايام رقة وترفا بحيث صدق ما قيل فى هذا العصر من ان الثقافة الاندلسية سادت فى المغرب الاقصى » .

ذكرت فى الفصل السابق كذلك كيف دخل يوسف ابن تاشفين بلاد الاندلس ، والظروف التى دعت أن يستنجد به المعتمد بن عباد ، صاحب اشبيلية ، وما انتهت اليه معركة « الزلاقة » (ساكر الياس ، عند مؤرخى الافرنج) من انتصار المرابطين الحاسم ، هم والاندلسيون ، على حشود الحلف القشتالى بقيادة الفونسو السادس . ولقد وصف صاحب « الحلل الموشية ، فى ذكر الاخبار المراكشية » يوم الزلاقة ، قائلا : «كان يوما لم يسمع بمثله منذ اليرموك والقادسية فياله من فتح ، ما كان اعظمه ، ويوم كبير ، ما كان أكرمه ، فيوم الزلاقة ثبتت قدم الدين بعد زلاقتها ، وعادت ظلمة الحق الى اشراقها ، نفست مخنق الجزيرة بعض التنفس ، واعتزت بها رؤى الاندلس » ، وفى أول هذا القول مبالغة كاتب قاصر المعرفة بأيام الاسلام فى غير اليرموك والقادسية .

غادر ابن تاشفين الاندلس ، وقد وضع فيها ثلاثة آلاف مقاتل من الملثمين تحت تصرف ابن عباد ، صاحب اشبيلية ، ولم تفت هزيمة الفونسو السادس فى عضده ، فان حركة الاسترداد المسيحى تمثل المكابدة

والعزيمة والاصرار ، لا تفلها السنوات انتصارا أو هزيمة ، لقد قرر الاسبان طرد المسلمين من شبه الجزيرة مهما طال الزمن .

اتجه « الادفنش » الى شرقى شبه الجزيرة يغزو ثغورها ، وينشر الخراب فى ربوعها وحقولها . ولم يمض على هزيمته فى « الزلاقة » أكثر من عامين .

فقدم على كبير المرابطين بحاضرته مراكش وفد من تلك الثغور الشرقية ، من بلنسية ومرسية ولورقة المهددة بالغزو القشتالى ، يشكون اليه حال بلادهم ، وعبث « الروم » فيها ، كما قدم اليه ابن عباد ، فلم ير يوسف بن تاشفين مندوحة عن الاستجابة ، وعبر بحر الزقاق مرة ثانية عرف فيها حقيقة ملوك الطوائف، وحزازتهم وفلاكتهم ، ولم يستنجد به ابن عباد لمحاربة القشتالية فحسب ، بل ليساعده على استرجاع ثغر مرسية الذى استولى عليه دعى من الادعياء اسمه ابن رشيق .

كانت خطة ابن تاشفين تسديد هجومه على حصن بشرقى الاندلس يحتله الاسبان ، ويهددون به الثغور الشرقية ، لم ينجح المسلمون فى استرداد الحصن ، مصدر الخطر الداهم على تلك الثغور .

لقد اخطأت حين زعمت فى الفصل السابق بان المحنة تقرب بين الافئدة ، وكان أخلق بى أن أضيف : فى الظاهر ، ولا أثر لها على ما فى السرائر ، وكان فشل المسلمين أمام الحصن فاتحة مساجلات واتهامات وخلافات بين ملوك الطوائف ، يتراشقون بالعتاب والسباب فى حضرة ناصرهم « أمير المسلمين » الملثم ، الذى أمر برفع الحصار ، ثم قفل عائدا الى مراكش حيث تناهى اليه ان صاحب غرناطة توالس مع مندوب الادفنش

مقابل مبلغ من المال له صورة ، وان ابن رشيق ، مغتصب مرسيه من ابن عباد تعاون مع النصارى فى خلال حصار المسلمين للحصن المنيع .

وهنا قرر البطل البربرى العودة الى الاندلس للمرة الثالثة ، دون استدعاء أو استنجاد من أولئك الملوك الهلافيت ، وفى عزمه الاطاحة بهم ، وجمع كلمة شعب الاندلس وشعب المغرب تحت زعامته : عزل ونفى صاحب غرناطة وصاحب مالقة ، وأقام ابن عمه على رأس مجموعة جيوش اربعة من المرابطين ، للقضاء على ملوك الطوائف قاطبة ، فحاصر اشبيلية وقبض على المعتمد بن عباد ونفاه الى المغرب ، واقتحم بطليوس واسقط صاحبها الذى قتل هو وابناه ، وفتح المرابطون قرطبة ، والمرية ، ومرسية ، ورندة .

قال يوسف تاشفين : « وانما كان غرضنا فى ملك هذه الجزيرة (الاندلس) أن نستنقذها من أيدى « الروم » ، لما رأينا استيلاء هؤلاء على أكثرها ، وغفلة ملوك المسلمين ، واهمالهم للغزو ، وتواكلهم ، وتخاذلهم وايثارهم الراحة ، وانما هم واحدهم كأس يشربها ، وقينة تشنف أسماعه ، ولهو يقطع به أيامه ، ولئن عشت لاعيدن جميع البلاد الى المسلمين ، ولأملأنها على الروم خيلا ورجلا لا عهد لهم بالدعة ، ولا علم عندهم برخاء العيش ، انما هم أحدهم فرس يروضه ويستفرهه أو سلاح يستجيده ، أو صريخ يلبى دعوته . . . »

وهكذا قضى المرابطون الاعوام التى قامت فيهما مملكتهم فى جهاد ضد الحلف القشتالى ، استرجعوا به اكثر البلاد التى أخرج عنها المسلمون ، وخضع لهم جنوب شبه جزيرة ايبريا بأجمعه ، وجزائر البليار . عند تمام المائة الخامسة من الهجرة (١١٠٦ م)

توفى البطل الملثم الاعظم ، وخلفه على بن يوسف بن تاشفين ولم تكن مراكش عاصمة المرابطين حينذاك اكثر من رباط للمحاربين يقول فيها ابن خلدون : « وجعل يوسف مدينة مراكش لعسكره ، وللترس بقبائل المصامدة المصيفة بمواطنهم بها فى جبل درن » ، وبنى بها مسجدا وقصبة (قلعة) .

وفى عصر ابنه على ، انفسحت رحاب المدينة بمبانيها حول قصبتها ، وكثر سكانها ، ولم يكن على ابن الصحراء القح مثل ابيه ، فقد ولد لام نصرانية من السبايا ، على شاطىء بحر الزقاق بمدينة سبته ، وتلقى ثقافة اندلسية ، ونشأ يحذو حذو خلفاء بنى امية العظام فى قرطبة ، وجاز الى اسبانيا بعد توليه بسنوات قليلة ، وتوفى الفونسو السادس بعد ذلك ، فتولى محاربة المسلمين الفونسو المحارب ملك اراجون (ارغون) وحليفه ملك قطالونية ، وانتصرت جيوش على بن يوسف فى معركة « اقليش » بقيادة أخيه تميم بن يوسف ، وكانت هزيمة منكرة ، لقى فيها حتفه الامير سانشو بن الفونسو السادس وزايدة المسلمة ، كنة المعتمد بن عباد ، كما قتل فيها عدد كبير من مقاتلة النصارى وكماتهم ، ومن بينهم سبعة اقيال يحملون لقب «قومس» (كونت) وعرفت المعركة بموقعة « القوامس السبعة» .

وقد أفضى هذا النصر بعلى بن يوسف الى أن يجىء ليضطلع باعباء الحرب على راس جيش عرمرم ، وهمه الاستيلاء على طليطلة ، فدمر ما حولها وحاصرها ولكنه ارتد عنها بعد شهر عندما فشل فى اقتحام اسوارها ، بينما وفق واحد من ذوى قرباه ، الامير سير بن أبى بكر فى حملة جردها على البرتغال تم فيها فتح مدائن شنترين وبطليوس وبورتو ولشبونة .

تتابعت حمــلات المرابطين فى حكم على بن يوسف ، ما بين توفيق وخذلان ، الا ان القوات المرابطة على حدود الشرك كفلت للأندلسيين أمنا لم يكونوا يعرفونه منــذ أمد بعيد ، ووجدت أسـبانيا الاسلامية وقتئذ فى السلام متعة الحياة ، واحسـت بالرغبة فى التفوق امام انظـار العالم الاسلامى .

واهمية حكم على بن يوسف ـ من الوجهة الحضارية ـ هى توطد الاسلوب الاندلسى فى حياة المغرب الاقصى فنا وعلما وأدبا ، وقد أم بلاط امير المسلمين بمراكش جمع غفير من نخبة الاندلسـيين ، مفكرين وعلماء وفنانين وأدباء .

الا ان النفوذ الـكبير الذى كان يتمتع به الفقهـاء والعلماء فى الاندلـس ، ومشـاركتهم فى شئون الحكم ، امتــد الى المغرب وعاصمة المرابطين ، وكان لهـا أثر رجعية بغيضـة ، وضيق فى الافق الفكرى ، تعصبا ضد من لم يشـاطر أولئك الفقهاء معتقداتهم .

ومن دراسة العلامة جولدتسـيهر نعرف ان انتصــار المذهب المالـكى (السائد فى المغرب الى اليوم) تم عام ١٠٤٨ م ، وكانت وحدة المذهب قد أضفت على الفقهاء المغـاربة التوقف والجمود ، فعزفوا عن الرجوع الى « الاصول » يستنبطون منها الاحكام ، ويتخذونها مادة للدراســة ، وقنعوا بكتب « الفروع » ، وهنــا يقول محيى الدين عبد الواحد المراكشى : « وكثر ذلك حتى نسى النظر فى كتاب الله ، وحديث رسـول الله صلى الله عليه وسلم » ، وانسـاق القوم وراء التقليد ، وانصرفوا عن النظر والاجتهاد .

ولقد وقعت حادثة ذات خطر من الناحية الفكرية ، بسبب سيطرة الفقهاء القاصرين المتزمتين ، هى احراق

كتب أبى حامد الغزالى ، فقد كان الفيلسوف المسلم العظيم يشجب نزعات الفقهاء وحرصهم على الدنيا ، وطمعهم فى المناصب المرموقة ، والضغن الذى يحملونه للعلماء الزهاد ، ولم يكن العلم فى نظر الغزالى مهنة دنيوية تعود على صاحبها بالربح . وانما هو « عبادة القلب ، وصلاة السر ، وقربة الباطن الى الله تعالى» .

ففى عام ١١٠٩ م ، امر على بن يوسف « أمير المسلمين » ، باملاء الفقهاء ، أن تحرق كتب الغزالي ، وأحرقت نسخة مجلدة من « احياء العلوم » أمام الباب الغربى لجامع قرطبة ، فى جمع حضره الفقهاء ، وصدر « الظهير » الاميرى فى جميع أنحاء امبراطورية المرابطين باحراق كل ما يعثر عليه من مؤلفات الغزالى.

وكان هذا وغيره مما ينذر بخاتمة المرابطين وشيكا ، وصعود نجم « المهدى » ابن تومرت ، «فقيه السوس» و « داعية الموحدين » الاكبر ، وقيام دولتهم بزعامة عبد المؤمن بن على « سراج الموحدين » .

تحت شجرة الخروب

شخصية عجيبة تحمل اسم محمد بن عبـد الله بن تومرت ، من قبيلة هرغة ، فخذ من افخاذ المصمودية ، نشأ في بلاد الســوس الاقصى ، الى الجنوب الابعد من مراكش ، على سفح جبل انجليز .

« والسوس عرفت في العالم الاسلامي كبلاد للسحرة والمشعوذين ، كما يعتبر أهل الجنوب بالمغرب الاقصى أساتذة في علم العرافة والتنجيم والقوى الخفية ، يأمرون الجن ويكشفون عن الـكنوز المخبوءة وراء الارصاد .. وهم الى ذلك قوم أولو فصاحة بسيطة تأخذ بمجامع الافئدة ، يخاطبون جمهور الســذج الطلعة ، وجلهم يجيد لغتين ، يضمنون خطبهم ـ بالعربية أو بالبربرية ـ آيات من كتاب الله ، أو عبارات دينية تضفي على أعمالهم التي ينكرها الاسلام أحيانا صبغة من التمسك السطحي بالدين . . .

« وبربر المغرب في جملتهم اهل صلاح وتقوى ، الا ان الاسلام يقتصر عندهم على جانبـه الديني فقط ، والدين مكرم في المدينة ، لـكنه لا يتـدخل في حيـاتها الخاصة ونظمها وميولها ، والمثــل الاعلى الغامض الذي تحاول أن ترسمه » (العلامة بروفنسـال) .

ومحمد ليس اسمه أصلا ، ولا عبد الله اسم أبيه ،

انما استعار الاسمين تيمنا وتبركا ، بعد تبحره في العلوم الإسلامية ، وقد نزح الى الشرق طلابا للمعرفة العليا ، وتعمقا واعيا للأصول .

فهو بربري قح ، وكان ابوه تومرت رأس قبيلته أو « امغارها » باللسان البربري، واسم جده لابيه وجليد، وجده لامه وابوركن .

بدأ رحلتـه الشرقية يافعا في مطالع القرن السادس الهجري (١١١٠ م) ، وانتهى الى بغداد حيث قرا على علمائها شيئا من أصول الدين ، وسمع الحديث على اقطاب المحدثين ، ثم انتقل من بلاد الرافدين الى الشام والمظنون انه اجتمع هنـاك بأبي حامد الغزالي ، وان صاحب « احياء العلوم » حين سمع منه بما جرى على كتبه من مصادرة واحراق ، باشارة الفقهاء على « أمير المسلمين » في دولة المرابطين القائمة في ذلك الوقت ، علق على الخبر بقول غير مثبوت : « ليذهبن عن قليـل ملكهم (أي المرابطين) ، وليقتلن ولد علي بن يوسف ابن تاشفين » .

وجاز محمد بن تومرت بمصر في حكم الفاطمي، الآمر بأحكام الله ، وكانت الاسكندرية وقتذاك عامرة بالعلماء، مواطنين ومستوطنين ، من أمثال ابن ميسر ، والفقيه عبد الرحمن العلاف ، وأبي بكر الطرطوشي ، وكان ابن تومرت يختلف الى مجلسه بخاصة .

قضى الطالب المغربي المجد نحو عشر سنوات في رحلته العلمية بالمشرق ، وقد أفعمت روحه ايمانا ، وعقله فهما موسعا لدينه ، ثم قفل عائدا الى وطنه على مراحل فكان في كل مدينة يحل بها ، وعلى ظهر السفينة التي خطفت به الى المغرب ، لا يفتر لسانه عن وعظ الناس في عنف الشاب المتدروش، حتى قيل بان ركاب السفينة

تبرموا بلجاجته فرموا به فى البحر ، حيث « أقام أكثر من نصف يوم يجرى فى ماء السفينة لم يصبه شىء ، فلما رأوا ذلك انزلوا اليه من أخذه من البحر ، وعظم فى صدورهم ، ولم يزالوا مكرمين له الى أن نزل من بلاد المغرب الاوسط بمدينة بجاية » (بوجى بالجزائر كما كانت تسمى أيام الاحتلال الفرنسى) .

وما لبث فى بجاية هنيهة حتى نهى الناس عن « الافراق (النعال) الزرارية ، وعمائم الجاهلية ، ولباس الفتوحيات للرجال والنساء » ، وفى عيد الفطر خرج الناس ، رجالا ونساء يرفلون فى حلل العيد ، فأقبل ابن تومرت بدير الضرب بهراوته فى ميسرتهم وميمنتهم.

وخرج أو أخرج الى ارباض بجاية ، حيث عاش فى زاوية يقضى النهار قارئا ، وشارحا ومعلما ، وفى المساء حين ينفض عنه الطلاب ، ينطلق من خلوته ، ويمضى الى مفترق من الطرق قريب ، يجلس تحت شجرة خروب يردد ابتهالاته ، ويستغرق فى تأملاته وتهجداته.

ولقد سمعه بعض اتباعه ، ورفقاء رحلته ـ وهم على وجه الدقة : الحاج يوسف الدوكالى ، والحاج عبد الرحمن ، وثالثهم أبو بكر الصنهاجى وكنيته البيدق، وكان مسجل اخبار الرحلة ، المتخيل خوارقها وكراماتها ـ سمعوه يقول : « الحمد لله الذى أنجز وعده ، ونصر عبده ، وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم ، يصلكم غدا طالب ، طوبى لمن عرفه ، وويل لمن انكره » .

وصل هذا الطالب من المغرب ، وكان متوجها الى المشرق ، مصدر النور والعرفان ، ولما عرف بأمر مواطنه الفقيه محمد بن تومرت ، قصده واستأذن فى الدخول عليه بالمسجد :

ـ ادخل يا شاب (دخل وتهيأ للجلوس بين الناس)

ـ ادن منى يا شاب (بلغ حضرته)
ـ ما اسمك يافتى ؟
ـ عبد المؤمن بن على
ـ واين تريد يافتى ؟
ـ المشرق ياسيدى ، التمس منه العلم .

قال ابن تومرت : العلم الذى تريد اقتباسه بالمشرق، وجدته بالمغرب يافتى .

بقى الشاب الى جانب أستاذه ، فلما جن الليل ، سمعه يقول : « لا يقوم الامر الذى فيه حياة الدين الا بعبد المؤمن بن على ، سراج الموحدين ! » .

بكى عبد المؤمن وقال : « يا فقيه ، ما كنت من شىء من هذا ، انما أنا رجل أريد ما يطهرنى من ذنوبى » .

قال ابن تومرت : « تطهرك صلاح الدنيا على يديك ، وطوبى لاقوام كنت أنت مقدمهم ، وويل لقوم خالفوك ، أولهم وآخرهم ، أكثر من ذكر الله يبارك لك فىعمرك، ويهديك مما تخاف وتحذر » .

وهكذا لازم الفتى أستاذه على راس طلابه واتباعه ، وسافروا من بجاية الى تلمسان ، فوجدة (آخر مدينة مغربيةعلىالحدود الحالية بينالمغرب الاقصى والجزائر) ، ومنها الى فاس حيث استقروا بواحد من مساجدها ، يقرأون على أستاذهم ، وينضم اليهم المريدون .

وكلما خلا ابن تومرت من الدرس ، خرج الىالمدينة يسعى داعيا الى الفضائل ، والتمسك بأهداب الدين ، ونبذ البدع . ومن أخباره بفاس أن هاجم حوانيت آلات الطرب من « دفوف وقراقر ومزامير وعيدان وروط (نوع من الرباب) ، واربية (جمع رباب) وكيتارات ، وتولى هو واتباعه تحطيمها » .

وكان مآلهم هنا ، مآلهم من قبل ومن بعد : الاخراج من المدينة .

واصلوا طريقهم الى مراكش عاصمة المرابطين الزاهرة ، ونزلوا بمسجدها ، وروى ابن الاثير المؤرخ : ان ابن تومرت راى ذات يوم اخت واحد من امراء المرابطين فى موكب من الجوارى الحسان عدة كثيرة ، وهن مسفرات كعادة صنهاجة ، تسفر نساؤهم ، ويلتثم الرجال ، فأمرهن بستر وجوههن ، وانهال مع اصحابه ضربا فى دوابهن ، ووقعت الاميرة عن دابتها .

واياً كان حظ الحادث من الصدق ـ ولقد اذكر ان ابن بطوطة المغربى الطنجى، فى ذيبة المهل (حاضرة جزائر المحلديب ببحر الهند) ، وكان قاضيها ، امر النسوة بستر اجسادهن العارية من الراس حتى السرة ، فرفضن، واكتفى بأن يشترط دخول المتقاضيات الى ساحة العدالة محجبات بالحجاب الشرعى ـ فقد ابعد الفقيه الدرويش ومريدوه عن مراكش .

ونزح الجمع المشاغب الى الجنوب حتى بلغوا هرغة ، مسقط راس استاذهم فى مضارب المصمودية بالسوس الاعلى ، حيث اقام الفقيه بين اهله وعشيرته يعظ ويتعبد ، ويستقبل وفود القبائل التى عرفت بأمره ، وقد سبقته اليهم شهرته .

تلك كانت نشأة الموحدين ، حسبما جاء فى مذكرات أبى بكر الصنهاجى المكنى بالبيذق ، ممن صحب « المهدى » فى رحلته من المشرق الى المغرب .

ولا يفهم اصطلاح «الموحدين» على مجرد كلمة التوحيد، وانما كان شعارا للحركة التى اثارها ابن تومرت تقويما لقصور المرابطين فى فهم دينهم ، وحرص فقهائهم المالكية على التمسك بالفروع دون الاصول ، وقد

أخذوا فى تفسير صفات الله أتجاها ماديا ، حتى فشت بين اهل المغرب فى عصر المرابطين بدعه « التجسيم » ، واعاد ابن تومرت الحق الى نصابه فى أن صفاته تعالى من ذاته ، وان شريعه الاسلام تقوم على دراسة القران والحديث أصولا ، لا على تعاليم فقهاء يعتمدون على القياس والاجماع فحسب .

غادر ابن تومرت وأبناؤه المقربون مضارب هرغة وتوغل فى مرتفعات السوس حتى محلة « تين ملل » (اى البئر البيضاء) حيث بايعه من اتبع هداه تحت شجرة خروب سنة ٥١٥ من الهجره ، وكان اول من بايعه تلميذه الاثير عبد المؤمن بن على ــ ولقب فقيه السوس بلقب « المهدى المعصوم » .

كانت دعوة « المهدى المعصوم » ، قد اخذت فى الانتشار من «تين ملل» ، (تينمل فى اللغات الاجنبية) الى سائر بلاد المغرب الاقصى ، وتحولت الى ثورة على دولة المرابطين وقد آذن نجمها بالافول .

وجهز المهدى ابن تومرت جيشا من الموحدين لفتح مراكش ، وخطب فيهم قائلا :

« اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين ، وادعوهم الى اماتة المنكر ، واحياء المعروف ، وازالة البدع ، والاقرار بالمهدى المعصوم ، فان أجابوكم فهم اخوانكم ، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ، وان لم يفعلوا قاتلوهم ، وقد اتاحت لكم السنة قتالهم » .

ونصب على الجيش تلميذه وخليفته عبد المؤمن قائلا : « انتم المؤمنون ، وهذا اميركم » ولقب عبد المؤمن وخلفاؤه من بعده بأمراء المؤمنين .

كان عبد المؤمن ابن فلاح متوسط الحال من قبيلة بربرية الاصل تعربت منذ الفتح الاسلامى ، وقد تخلت

فى عهد ابن تومرت عن التمسك بلغتها البربرية ، ولتميز وحدها من بين الجماعات المذكورة فى كتاب الانساب بأن الاسماء العربية لبطونها لا تقترن بما يقابلها فى الاسماء البربرية على ما يقول العلامة المستعرب بروفنسال .

كان أبو عبد المؤمن عليا بن علوى بن يعلى ، وزوجته كانت تعلو بنت عطية بن الخير ، وعبد المؤمن هو ثالث أبناء على بن علوى من السيدة تعلو ، نشأ على الحفظ والقراءة ، وطلب العلم بتلمسان ، ثم عول على الذهاب الى المشرق ، عندما تبين له ان التعليم فى المغرب لايشفى له غليلا ، ورأى عمه أن يرافقه فقصدا بجاية ليركبا منها أول سفينة تبحر شرقا ، ثم حدث ما سبقت الاشارة اليه من لقائه بفقيه السوس ، ابن تومرت « المهدى المعصوم » .

« ويمكن ان نتمثل هذا الشاب المجد ، ولا شك انه كان فيما يظهر لمن يراه ميسور الحال ، قرويا عليه مسحة من التمدن أشبه بأمثاله ممن تكتظ بهم لوقتنا الحاضر زنقات (أزقة) الاحياء القديمة بمدينة فاس ، اجتمع له التواضع والحياء اللذان يتسم بهما من كان فى سنه ، نفس يقظة طلعة ، متعطشة للمعرفة ، يقوم عمه منه مقام المرشد ، وهكذا انطلق عبد المؤمن فى الطريق الذى رسمه له القدر .

« كان قدرا عظيما أن يبدأ تحت قيادة روحية لشخصية ابن تومرت التى تستهوى من حولها الى أقصى حد ، ونفس تجمع بين البساطة والتعقيد ، ونزعة حالمة ، شخصية المصلح الدينى ، الا انه سياسى بلغ الغاية فى الالمعية والاخلاص ، يؤمن برسالته ايمانا يفضى به الى الرغبة فى تحقيقها بقوة عارمة .. ومجمل القول أن ابن تومرت كان شعلة ذكاء .. مع صفاء فى النفس

لا يخلو من اللياقة الحضرية والرقة فيمن حوله ، والخشونة والقسوة مع تقدير العواقب ، لين العريكة فى الوقت المناسب ، لقد استطاع هذا البربرى القادم من الاطلس والعالم المسلم أن يصبح لدى مواطنيه شيخ القبيلة (الامقار) ، مسموع الكلمة يتخلى فى خطبه عن أسلوب الاحتجاج ولو لحظة ليتحدث فى بساطة دون التشدق بالفصاحة على طريقة القوم ، وله فى الرسول أسوة حسنة . . . لم يكن فيه شىء من سجايا العربى الساكن فى شبه الجزيرة ، وكان يعلم انه مهما فعل فان اللغة التى يكتبها لغة غريبة عليه ، ومهما كان من بلاغة رسائله فانه كان يفكر بالبربرية وبلسان البربر كان يخاطب قومه أبناء « تين ملل » ، أما العربية فكانت لغة المواعظ والخطب التى تزيد أتباعه الجدد ايمانا ، يؤثر فى نفوسهم ايقاع العبارات الجميلة التى تتردد فى آذانهم رنينا عذبا ، دون أن يحيطوا بها احاطة تامة ، اذ كانت البربرية ، لسانهم ، لغة الشجب واللعن ، ولغة الدعاة الذين يعلنون مقدم « المهدى المعصوم » من قرية الى قرية ، ومن واد الى واد .

« الاسلام فى المغرب والاندلس — ليفى بروفنسال »

وكان الجيش المؤلف من أربعين الف مقاتل ، المعقود لواؤه لعبد المؤمن ، خليفة « المهدى » تحت أسوار مراكش ... « كناطح صخرة يوما ليوهنها ، فلم ... الخ » ، وانتهت الحملة بهزيمة قتل فيها الكثير ، وأصيب « أمير المؤمنين » القائد بجرح عميق فى فخذه الايمن تخلف عنه عرج ، فلما وصل الخبر الى ابن تومرت ، قال : « أليس قد نجا عبد المؤمن ؟ » قالوا : نعم .. قال : لم يفقد أحد» .. وهذه فى الحق مكابرة من داعية الموحدين الاعظم ، أخفى بها الجرح النفسى

العميق ، فقد مرض بعد شهور من هزيمة جيشه ، وتوفى بداره فى « تين ملل » ، ودفن بأرض المسجد الملاصق للدار ، واخفى الاتباع موته ، ليواصلوا غاراتهم على المرابطين ، ثم أعلنوا وفاته بعد انقضاء ثلاث سنوات وبايعوا عبد المؤمن بن على ، اول خليفة فى أسرة الموحدين الحاكمة ، التى انتهت بالقضاء على دولة المرابطين ، وبامتداد ملكها الواسع على المغرب الكبير قاطبة ، من برقة حتى المحيط الاطلسى ، ومن بلاد السودان جنوبا حتى شمال الاندلس ، ودام ملكهم قرنا ونصف قرن ، أشاعوا الرهبة فى قلوب أعدائهم ، وعقد النصر لالويتهم فى اكثر من موقعة وموقع .

ثم حل قضاؤهم المحتوم ـ قضاء الدول طرا ـ ونذير انهيار دولتهم بعد موقعة رهيبة بينهم وبين نصارى الاندلس ، تعرف بمعركة « العقاب » ،وسيخلفهم على المغرب الاقصى بنو مرين ، فالسعديون ، وأخيرا العلويون ، وهذه هى الاسرة القائمة حالا ، والتى تحكم ما كان يعرف فى شبابى ببلاد مراكش ، منذ ثلاثمائة عام .

كانت موقعة « العقاب » بفحص « طولوصا » حدثا خطيرا فى تاريخ الاسلام بالاندلس ، نشأت على اثر حلف صليبى اقامه اسقف طليطلة رودريجو خيمينث من الامارات والممالك الاسبانية والبرتغالية ، ودعا اليه اقيال فرنسا وايطاليا لينضموا الى اخوانهم فى الدين بشبه جزيرة ايبريا (١٢٠٦ م) ، وكان بابا روما انوتشنتى الثالث المحرض الاكبر على توحيد كلمة الكاثوليكية ضد الاسلام ، بارك مدة كثيرة ممن وفدوا على اسبانيا من ايطاليا وفرنسا والبرتغال وقطالونيا .

اجتمعت فى طليطلة عاصمة قشتالة حشود هائلة من

محاربى تلك البلاد ، ومن فرسان الصليب « الاسبتارية والداوية » ، وغيرهم وغيرهم وزحفت تلك الجموع والجحافل من طليطلة فى ٢٠ يونية عام ١٢١٢ .
وخرج أبو عبد الله محمد الناصر بن أبى يوسف يعقوب بن أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، من اشبيلية فى العام نفسه على رأس جيش موزع الفكر ، مفكك العزيمة والعرى ، بلغ قرطبة ومنها الى جيان .

وزحفت القوات الصليبية جنوبا حتى بلغت واديا قريبا من بلدة طولوصا ، يعرف باسم « لاس نافاس دى طولوصا » ، (أى فحص طولوصا) ، واسمه فى المدونات العربية « العقاب » (الطائر) نسبة الى حصن اموى قائم بالفحص الذى دارت فيه المعركة .

انهزم المسلمون هزيمة نكراء ، وعاد محمد الناصر لدين الله ، « امير المؤمنين » الموحدين الى اشبيلية ، ومنها الى المغرب ، واحتجب فى قصره بمراكش، كسير الفؤاد ، حتى قضى بعد سبعة أشهر من اندحار جيوشه .

وكان ابنه المستنصر بالله ابو يعقوب أول خلفاء الموحدين الضعفاء ، بويع بالخلافة فى السادسة عشرة من عمره ، ونشبت الفتنة فى كل مكان ، وبعد وفاته تفرق أمر الموحدين الى اكثر من خليفة ينازع « أمير المؤمنين » ، وكان آخرهم من بويع بالاندلس ، ومزاحمه الذى بويع فى المغرب ، وتحول المغرب مسرحا للقتال بين خلفاء الموحدين ، وعادت أرض الاندلس الى اسوأ مما كانت ايام ملوك الطوائف .

وتأبين الدول الزائلة لا يتأتى الا ان يعرف المرء بآثار العمران التى خلفها امراؤها وملوكها .

نظرة .. فابتسامة .. فسلام .. فلقاء

عشقت المغرب الاقصى من أول نظـرة ، عنـد أول لقـاء (١٩٥٨) ، واعجبت بأعلام الفـكر المغربي فى اجتماعاتنـا بمؤتمر اللجان القومية لليونسكو بمدينـة فاس ، ثم فى اللقاء الثقافى بمناسبة المهرجان الافريقى بالجزائر (١٩٦٩) وأخيرا بجامعة لوفان (بلجيكا) ، الجامعة الـكاثوليكية العريقة التى استضافت مجموعة مختارة من الشرق العربى والمغرب ، ليحاضروا طلبـة الدراسات العربية بتلك الجامعة ، ويناقشـوا موضوع الساعة وهو « نهضة العالم العربى » (١٩٧٠)

وكانت رحـلتى عام ١٩٧١ من الاندلس الى المغرب توكيدا للألفة الحارة التي أشـعر بها نحو تلك البـلاد البعيدة وقد بهرتنى بتكوينها الجغرافى وجوها وتاريخها العجيب ، وآثارها ، وألوان سهولها ووديانها وجبالها ، وسواحلها الطويلة على الاقيـانوس الاطلسي ، والبحر الابيض المتوسط ، كما كانت تعلقا بشعبها الذىاجتمعت فيه خصائص تاريخه ، وصلاته الاندلسية ، والاجناس التى يتألف منها بيضا وسمرا ، بربرا وعربا ، ثم أثر قربه من أوربا فى تهيئته للحضارة الشاملة مع احتفاظه بشخصيته التى تفرض عليه التؤدة فى تطوره .

اننا فى مصر ، بقوامها الجغرافى المتناسق السهل ،

وبالعوامل الاخرى التي جعلت منا شعبا واحدا موحدا ، منذ فجر التاريخ ، ليصعب علينا أن نفهم معنى تماسك بلاد كالمغرب الاقصى لا تساعد تضاريسها ، ولا قبائلها وبطونها على هذا التماسك ، فمن سكان الجبال ، فى بلاد الريف الى الشمال بمحاذاة شاطىء البحر الابيض، الى قبائل جبال الاطلس التى تمتد من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى : فتقسم المغرب الى شطر شرقي ينبسط سهولا وسباسب ودهاسا ، وشطر اوسط خصب ما بين وادى الملوية ووادى السبو ، وشطر الى الجنوب من جبال الاطلس ، بواحاته وسط امتداد الصحراء الافريقية الكبرى ، ويتصل بالسنغال وضفاف نهر النيجر .

بلاد الخصب والمحل ، والجفاف والمطر ، وجليد الجبال الشماء وثلوجها ، ومجارى مياهها ــ ويعرفونها بالاودية كما كانت تسمى بالاندلس ــ تنحدر الى البحر المتوسط شمالا ، والى الاطلنطي غربا ، ومنها ما لايعرف له مصب ، اذ تغيب مياهها فى غرود الجنوب الصحراوى وسباسبه .

بلاد الربيع المزهر ، والخريف المثمر بالفواكه ، منبت أشجار الصنوبر والسنديان والارز والدلب على سفوح الجبال ، وشجيرات العشب العابس قرب القمم ، والشطئان الرملية والصخرية الى مئات الاميال ، والامواج القصيرة ذات أعراف الزبد شمالا ، والعاتية العالية تحركها رياح بحر الظلمات . شعب مختلط ، وان تميزت اجناسه ، والمؤكد ان الجنس الغالب ــ البربر ــ استعمر المغرب من اقدم الازمنة ، ولا يعرف العلم عن منبته سوى القليل الذى لا يشفى غليلا . . ومن يدرى ، لعل كلمة السر فى أصل شعوب الشمال

الافريقى تقبع فى كلمة « ليبيا » ، حتى أن مصر ذاتها ترتد فى بعض أرومتها الى جنس ليبى عاش فيما قبل التاريخ يمرح فى الاحراج الواسعة أيام كانت الغزلان والسباع والتياتل والزراف تهيم وسط المراعى الخضراء قبل أن يتحول الجو ، ويتوقف الغيث ، وتمحل الارض ، ويأتى الماعز على كل نبت ، ويستوى جريان النيل فى واديه ، وبين شريطيه الاخضرين .

سكن الفينيقيون شواطىء الشمال الافريقى ، واخلافهم القرطاجيون ، واحتلها الرومان دون التوغل بعيدا ، او التصعيد فى الجبال ، وكل ذلك لم يكن فى تاريخ المغرب الاقصى شيئا مذكورا الا قليلا ، لم يترك من الآثار الا نزرا يسيرا ، أهمها ما نرى من بقايا « فولوبيليس » الرومانية ، وهى « وليلى » اليوم الى الشمال من مكناسة ، والغرب من فاس .

اما الاسلام فقد طبعها بطابعه ، ونبت غرسه فى اراضيها ، وأينع فى السهل والحزن ، فى الوهاد والجبال لم يكن ذلك ميسرا فى مطالع الفتح ، على الرغم من اقتحام عقبة بن نافع الفهرى للشمال الافريقى كله حتى بلغ شواطىء بحر الظلمات . وانا لنتصوره ، على ماجاءت به أخبار الاولين ، وقد لكز فرسه يدفعه الى خوض ماء الاقيانوس حتى بلغ الماء ركبتى القائد العربى ، ثم رفع ناظرته الى اعلى يشهد ربه على البر بقسمه أن يحمل راية الاسلام حتى مغرب الشمس ، بكل ما وهبه سبحانه من قوة على الفتح والجهاد فى سبيل الله ، وبث فى قلبه من الايمان بالشهادة .

ويبدو ان البربر وقد استمعوا الى كلمة الاسلام من القائد العربى وصحبه ، لم يحفظوا عهده ، ولا استنارت بصائرهم بالنور الجديد ، فارتدوا الى بداوتهم وعقائدهم

« الانيمية » ، بعد رحيل عقبة عنهم فى القرن السابع (٦٨٣ م) .
انما القرن الثامن هو عصر الاسلام الظافر على طول المغرب الكبير قاطبة حين اجتاحه موسى بن نصير ، واستولى على المغرب الاقصى من طنجة فى الشمال الى تافيلالت فى الجنوب ، ثم أقام مولاه البربرى طارق بن زياد حاكما على طنجة ، وقائدا على جيش من البربر عبر بحر الزقاق الى اسبانيا ، وشتت جحافل القوط ، وحقق أول فتوح الاسلام فى الاندلس .
وكان لادريس بن على ، وابنه ادريس الثانى الايادى البيضاء على تثبيت قواعد الدين الحنيف فى المغرب الاقصى ، وعلى انشاء حاضرته الاولى فاس ، وما برحت عاصمته العلمية والدينية والادبية .
ولاذكرن فى رحلتى الاخيرة زيارة مسجد ادريس بن ادريس بفاس ، وبلوغى باب مقامه امتلأ بالمريدين قعودا يتلون آيات الذكر الحكيم جماعة ، لم اجتز عتبة المقام فليس فيه مكان لقدم ، وقفت ببابه اقرىء صاحبه السلام وأتلو فاتحة الكتاب .
ووقوفى بمعارج الجبل ، فى الطريق من مكناسة الى وليلى لمشاهدة آثار « فولوبيليس » الرومانية ، أرفع البصر الى مدينة المغرب المقدسة ، واسمها من اسم وليها المدفون فى ارضها : مولاى ادريس ، صاعدة فى الجو ، شامخة تتبوأ كتف الجبل ، كأنها أوكار النسور
وكيف لا يكون عشقا أن أعكف منذ عودتى على دراسة حياة تلك البلاد فى ماضيها وحاضرها ، لا مجرد استزادة من معارف ، بل لاطيل أيامى فى « المملكة السعيدة » باستيحاء رحلتى القصيرتين اليها .
جلست وحدى على المقهى الكبير فى مواجهة دار

البريد بالرباط ، ساعة وبعض ساعة ، لا أمل النظر فى تلك العصرية الى السائرين زرافات ووحدانا ، رجالا ونساء ، من كل سن ، مع غلبة الشباب على الشيوخ ـ على عكس ما احزننى بالجزائر هبوط النسبة عن هـذا المستوى ، فكرتنى بأكرم الضحايا الذين سقطوا شهداء وأبطالا فى حرب التحرير الطويلة ـ وانها لعادة قديمة الفتها فى كثير من البلاد التى زرتها ، أن اطالع فى الزى والسيماء ، وفى ايقاع الحركة والسير ، صورة الحياة القائمة ، أستشف من ورائها قدرا ثمينا من روح البلد الذى اجهل ، وما بلغته من أدوار التطور .

وفى الرباط عاصمة المملكة المغربية الشريفة ، كنت اشهد هـذه الاطوار وكأنها « فلاش باك » لما عرفته منذ الحلم ، وسايرته فى تطور مصر ، من الحبرة والبرقع والملاية اللف ، والعربة الكارو وسوارس والترام المهكع ، وأوائل السيارات والاوتوبيسات ، وكرنفال الازياء ، والحفاء ، وعفريت الليل الحافى يجرى بمشعله ليضيء فوانيس غاز الاستصباح . . . الى ما نراه اليوم فى القاهرة الكبرى ، عاصمة افريقيا . . . لابد ان كانت الظاهرة ذاتها تحدث فى المغرب ، وان تفاوت الزمن ، متقدما فى مصر ، متأخرا فى غيرها من بلاد الشمال الافريقى .

فى الرباط، من مقعدى على الجادة الراسمة، احسست كأنى بالقاهرة فى صميم العصر الحاضر ، الا فيما يختص بالعنصر المحافظ ، وما برح ظاهرة مميزة فى عاصمة المغرب، وقد قارب على الاختفاء تماما من وسط العاصمة المدنية . فى فاس ومكناسة اوضح من الرباط ، وفى مراكش كأنها أيام مولد السيد احمد البدوى بطنطا ، ولا أنساها فى العشرينات ، ولم تردم الجعفرية بعد ،

وكان حفل المولد يقام فى ارض فضـــاء نعبر اليهـــا على كوبرى سيجر ، حلقة الحشر حول مركز « الصارى » الاعظم .

الفتيان الجالسون حولى بالمقهى ، والعابرون بى ، طوال شعر الراس ممطوطو السوالف ، هم شـــبابنا بالتمام والـكمال ، وان كانوا اكثر حدة وعصبيـــة ، وانشط خطوا ، والفتيات هن فتياتنا وان كن أكثر رزانة وخفرا ، ولـكن المحتفظين بالزى المغربى : الجلابة ذات الـكبود ، للرجال والنساء ، بالنسبة الى لابسات الميني والماكسى والبنطلون ، والى لابسى البنطلون المحزق كانه المايوه ، اظهر مما تراه فى القاهرة ، هذا الى ان الحجاب الابيض والازرق اكثر اصرارا على البقـــاء فى المغرب ، بينما البرقع بالعروسة وبغيرها قـــد اختفى أو كاد فى شوارعنا الحديثة ، هذا فى الواجهة الحضارية لبلدينا .

أما الواجهة القومية « الفولـكلورية » فكانت حيـــة منتعشـة بعاصمة الجنوب : مراكش الرائعة ، أعادتنى الى ماضى البعيد فى موالد السيدة زينب ، والحسين ، والحسينية ، والمحمدى ، وذلك عندما قضيت العصرية اتجول فى ميدان مراكش الشهير باسمه المخيف « جمعة الفناء » : ما بين الحاوى بالاعيبه وطلوع زرابينه وحياته وثعابينه ، والشاعر بربابة وبغير ربابة ، ولاعب السيرك على القارعة، وجواسق الباعة، وحامل الماء « الحملى » الذى اختفى من القاهرة منذ طفولتى ــ وهو فى مراكش يذكرنى ببطـل أوبرا « النـاى الســحرى » لموزار : « باباجينو » المـدندش ، وبمصـاروع الشيران ، بقبعة واسعة يتدلى منها « الصفا » والجلاجل ذات الجرس النحاسى ، يستجيب لضربات صاجاته وكاساته تنادى العطاشى ، وقارىء البخت ، وضارب الرمل والودع ،

وحلاق الهواء الطلق يصفف اللحية ، ويحلق الراس زلطة .

سرحت فى « المدينة » ـ كما كانت تسمى فى صفرى احياء الحمزاوى ، والتربيعة ، وخان الخليلى ، وتحت الربع ، والغورية ، والخيمية ، والسروجية ، وحارة اليهود ـ كل ذلك فى مراكش ، وفاس ، ومكناسة ، وغيرها ، ما فتىء حيا صاخبا لم يغيره الزمن كثيرا ، بينما العمران فى عواصمنا يعبث بقاياه ، وكأننا نأنف من بقائه .

وجامع « الكتبية » بمراكش لم ار حوله اثرا لمصدر اسمه ، وان ذكرنى بكتبية الحلوجى ، وكانوا فى صغرى حانوتا لصق دكان ، يجلس فيها الوراقون القرفصاء او يتربعون فوق ارضية خشبية تعلو بأكثر من ذراع عن ارضية الشارع .

اهم المدن التى زرتها فى رحلتى الاخيرة هى : فاس ، ومراكش ، والرباط ، ومكناسة ، توصف هناك بالحواضر الملوكية : تحمل تاجا فوق « رنكها » أو شعارها ، يعلوه خاتم سليمان ، النجمة المخمسة الخضراء التى تتوسط الراية المغربية . « فاس المحمية » كانت عاصمة الادارسة والمرينيين والسعديين ، و «مراكش الحمراء» كانت حاضرة المرابطين والموحدين ، دون أن ترتد فاس خطوة الى الوراء ، و « رباط الفتح » انشأها أول الموحدين عبد المؤمن « قصبة » أى قلعة وقصرا ومسجدا ، ووسعها خلفاؤه ، واختار مولاى اسماعيل « مكناسة الزيتون» عاصمة لملكه (ما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر) ، ثم عادت الرباط حاضرة المغرب فى حكم خلفائه من أسرة الاشراف العلويين ، سلاطين المغرب وملوكها الى يومنا هذا .

ان جمال المغرب الاقصى ، واقبال السائحين عليه من كل صوب وحدب ، وحسن استعداده لاستقبالهم ، لم ار له مثيلا فى بلاد الشمال الافريقى ، وما برحت مصرا على ان الاندلس تفرض على زائريها اتمامها بزيارة المغرب الاقصى ، اذا راموا أن يعيشوا الاندلس الاسلامية عينا لا أثرا .

الفن الأندلسى المغربى

« البربر قوم ذوو همة وباس ،
حباهم الرب من فضله بكثير »
ابن خلدون

لا ادرى مدى تحمل القارىء لكل الفذالك التاريخية التى حرصت فيها على ان أسبر أعماق شعب البربر ، ذلك الشعب العجيب ، الذى لم يكن يقدر له أكثر من تناحر قبائله وافخاذها وبطونها ، تنحدر من سفوح جبالها لتتولى تقشيط السهول والفحوص ، وتعود منها بالاسلاب .

لم يقدر عليهم الفينيقيون ولا القرطاجيون ولا الرومان ، ولعل « وليلى » (فولوبيليس) كانت أبعد ما بلغه الاحتلال الرومانى للمغرب الاقصى ، ولقد عرف أبناء روما المستعمرون المنظمون ، بأمر القوة القتالية للبربر ، مع الاحتمال والتقشف ، فجندوا منهم فرقا (ليجيون) من المشاة والركبان ، تؤمن لهم الخلفية الجبلية الخطيرة .

أقول : لم يكن يقدر لعشائر البربر ، ولا لفلاحى السهول ، أن يقوم لهم ذكر تاريخى مميز ، لولا أن ضمت شملهم شريعة نزل بها على جاهلية شبيهة ، كتاب الحياة الدنيا والآخرة ، تؤمن بالوحدانية ، وتهدى القوم

الى صراط مستقيم وانسانية سامية ، شريعة لا أسرار فيها ولا احاجى ، ولا رموز .

تاريخهم منذ ضحى الاسلام شاهد على حقائق باهرة ، وهى ان فرسان العرب القادمين من الشرق بقيادة عقبة بن نافع ، ثم بزعامة موسى بن نصير ، قد جعلوا من فتوحاتهم بالمغرب حملات اضاءت نفوس البربر البدائيين بنور الاسلام ، ثم كان للعلوى مولاى ادريس ابن عبد الله ، المجاهد ضد العباسيين واللاجىء بعد هزيمته فى المشرق الى حمى البربر فى المغرب ، بمحلة « وليلى » ، والممهد هو وابنه لانشاء اجمل وأرسخ حاضرة مغربية على جانبي وادى فاس ، اثر أعمق فى نفوس القبائل المربرية من كل فتح وغزو ، فثبتت قواعد الاسلام ، وتمكنت من نفوسهم .

وواجبنا ونحن نطرق حضارة المغرب الاقصى ابان العصر الوسيط ان نؤكد ما تدين به العشائر المغربية لحضارة الاندلس ، والاصل فيها هو قيام الدولة التى اسسها عبد الرحمن الداخل الاموى فى قرطبة مستوحيا حضارة أسرته فى الشرق الاسلامي ، واذا كان ملوك الطوائف قد انتهوا بالدولة الاموية الباهرة فى الاندلس، الى التفاشل والتفسخ ، مما شجع أسبانيا المسيحية على القيام بحروب الاسترداد من شمالى شبه الجزيرة ، فقد تمكنت دولتا المرابطين والموحدين من ايقاف الزحف القشتالى الارجونى اللاونى الى مدى من الزمان والمكان .. وبذلك تم اخصاب المغرب بحضارة الاندلسيين ، واضحى الحكم الاسلامى ، قبل جلائه نهائيا عن شبه الجزيرة ، كلا لا يتجزأ ، يجمع بين الضفة الشمالية لبحر الزقاق ، وضفته الجنوبية ، أى بين عدوة الاندلس وعدوة المغرب .

ومع ماتدين به الدول الاسلامية فى المغرب والاندلس لحضارة الشرق الاسلامي وهو المنبع والاصل ، فان طبيعة الناس والارض والسماء ، وما تم من الاختلاط الوثيق بين المسلمين ، عربا وبربرا وموالى ، وبين الاسبان، سواء من أسلم منهم أو من التزم بمسيحيته ، قد طبعت المغرب وأدبه بخصائص مميزة ، وشخصية فريدة وسط الفنون الاسلامية ، وهى ظاهرة معروفة فى تنوع الفنون الاسلامية ما بين أواسط آسيا ، وشمالى الهند وبلاد ما وراء النهر ، وهضبة ايران ، ووادى الدجلة والفرات ، وسوريا ومصر ، والمغرب والاندلس .

وسنختار من ذلك التزاوج بين حضارة الاندلس وحضارة المغرب بعض الامثلة التى توصف فى تاريخ الفنون بالفن « الهسبانو ــ موريسكى » ، أى الفن « الاندلسى المغربى » اذا اردنا توخى الدقة التاريخية ، وذلك على امتداد تاريخ الدول التى نشأت بالمغرب الاقصى ، علما بأن الفن المغربى قد واصل طريق اصالته وخصائصه ، حتى بعد انتهاء الحكم الاسلامى بالاندلس خاضعا لسنة التطوير ارتفاعا أو هبوطا .

وامثلتنا مختارة من بين أهم منشآت الفن الاسلامى، وهى دور العبادة ، مساجد وجوامع وزوايا ، وما يتبعها من معاهد العلم ، والمدارس لاقامة الطلاب ، ثم عمارة التحصينات فى أسوار المدن وابوابها ، وما يعرف «بالقصبة» ، وتعنى مجموعة القلعة والحصن والمسجد والقصر ، وعمارة الرباطات ، واخيرا المنشآت الخاصة والعامة من قصور الخلفاء والسلاطين والامراء ، والبيوت والحمامات العامة والاسواق والقيساريات ، ولنترك جانبا فنون الزخرف فى الصناعات والحرف المختلفة .

ولقد اشرنا فى فصل سابق الى أثر الاندلس فى الموسيقي المغربية « الفنية » تمييزا لها عن الموسيقى الشعبية فى السهول ، المعروفة « بالجريهة » وينشدها الشيوخ والشيخات على نصوص باللغة الدارجة ، وعن موسيقي البربر : « اهيدو » فى جبال الاطلس الوسطى ، و « اهواش » فى الاطلس العليا .

ويدين المغرب الاسلامى لمشارقه فى فن الموسيقى ، حين خرج أبو الحسن على بن نافع ، المشهور بزرياب ، عن بغداد قاصدا قرطبة ، منشقا على أستاذه اسحاق الموصلى ، وقد تلقاه الاموى عبد الرحمن الثانى بالترحاب والنعم . ولم يقف دور زرياب عند الموسيقى التى ازدهرت بفضله فى بلاط الامويين بالاندلس ، فكان مستشارا خاصا للخليفة فى شئون الفن والاناقة (٨٢٢ م)

اجتمعت لزرياب ملكات الشعر والتأليف الموسيقى والعلم ، مقتفيا أثر الكندى استاذه ، وزرياب هو الذى أضاف الى العود وترا خامسا ، وهو صاحب مدرسة فى الغناء يعتبرها الاوربيون اساسا لتدريب الصوت بتمرينات على التصويت « الفوكاليز » وهو واضع قالب التاليف الموسيقى الذى يبدأ بالنشيد فى نوع من التلاوة المنغمة ، ويتبع بالحركات ويختم بالاهازيج .

الا ان الموسيقى فى ممالك غرناطة واشبيلية وبلنسية قد تأثرت بالفن الاسبانى ، وترجمت عن جو الدعة وهناء المعيشة وسط طبيعة كريمة خلابة ، وكانت اشبيلية مركزا لصناعات آلات العزف : القانون ، والعود والرباب والسلامية والناى والبوق ، وقيل فى المقارنة بين اشبيلية وقرطبة : « اذا مات عالم باشبيلية

حملت كتبه الى قرطبة حتى تباع فيها ، وان مات مطرب بقرطبة ، وأريد بيع آلاته ، حملت الى اشبيلية»

والاندلسيون هم مبدعو « الموشحات » ضربا من الشعر المصوغ للغناء المقطعى ، و « الازجال » التى خرجت عن قواعد الفصحى الى العامية الاندلسية تختلط فيها العربية بالاسبانية ... والبربرية .

ويعزو عبد الرحمن بن خلدون ابتداع قالب الموشحات الى الشاعر عبادة بن القزاز (القرن الحادى عشر) ، والزجل الى ابن قزمان (القرن الثانى عشر) .

والموسيقى الاندلسية انتقلت الى المغرب نتيجة للهجرات الكبيرة التى اضطر اليها المسلمون واليهود نتيجة لحركات الاسترداد المسيحية .

فعند سقوط قرطبة (١٢٣٦م) ، هاجر نحو خمسين الف مسلم الى تلمسان ، ومع سقوط اشبيلية ، تقاسمت غرناطة ، والشمال الافريقى آلاف المهاجرين ،

كما تقاسمت غرناطة وفاس مائتى ألف مهاجر بعد ضياع بلنسية ، وتلقت تطوان سيل المهاجرين المسلمين ، وعلى رأسهم ابو عبد الله من بنى الاحمر ، آخر ملوك المسلمين فى الاندلس .

ولا مكان للزعم بأن المغرب الاقصى اخرج فى العمارة طرازا يتفوق على ما ابتدعته قرطبة ، أو القيروان ، وحتى القرن الحادى عشر لم يظهر به ما هو جدير بالذكر .

انما عصر المرابطين، ابناء لمتونة من بطون الصنهاجة ، هو العصر الذى استألف الفن الاندلسى (منذ النصف الثانى من القرن الحادى عشر) وأدل مثل على تأثر المغرب بالاندلس نراه فى جامع القرويين ، ومسجد الاندلسيين بفاس ، وما أسرع ما يدرك الزائر تأثر هذين بالمسجد

الجامع فى قرطبة ، وسواء لمست فى طراز الاساطين الضخمة وعقودها المفلطحة بدائية المقلد او شخصية المستألف ، فانك حيال فن قرطبى ، ما فى ذلك من شك

وفى عصر الموحدين (منذ النصف الثانى من القرن الثانى عشر) — وكانوا أوثق صلة بالاندلس — يتفجر الفن الاندلسى — المغربى استلكتيات أو مقرنصات ، وقبابا وعقودا تبدو فى مساجد تازة ومراكش ، وحتى فيما بقى من مسجد « تين ملل » ، حيث دفن ابن تومرت فقيه السوس .

وهذا ابو يعقوب بن عبد المؤمن يقوم على انشاء مسجد اشبيلية الجامع وقد هدمه الاسبان ، وتمسك اهل المدينة بصومعته (منارته أو مأذنته) الكنز الغالى الى اليوم ، تحمل برج النواقيس لكاتدرائية اشبيلية ، اعظم كنائس اسبانيا ، وتعرف فى تاريخ العمارة باسم « الخيرالدا » .

وأكمل أبو يوسف يعقوب المنصور عمل جده فاتم قصبة مراكش ومسجدها الجامع ، وهو الذى اعتزم انشاء جامع من اكبر واوسع جوامع الاسلام بمدينة الرباط ، وأقام صومعته ، الشقيقة الصغرى «للخيرالدا» باشبيلية و « الكتبية » بمراكش ، ولم يتح له ان يرتفع بها الى غايتها ، ولا أن يكمل بناء الجامع ، فهو اليوم باحة بارحة فى فضاء الرباط ، رصت فيها الاعمدة ، وتحمل المنارة المنقوصة المبتورة اسم « برج حسان »

واروع المآذن او الصوامع فى رايى المتواضع هى منارة « الكتبية » ، بدأها عبد المؤمن وأتمها أبو يوسف يعقوب المنصور ، كاملة المعانى ، لم يشوهها برج أجراس ولا دوارة رياح (خيرالدا) ، بل تعلوها التفاقيح الثلاث (جمع تفاحة) ، وهى كرات من معدن مذهب تلبس فى

صارى المنارة ، بأحجام تتناقص صعدا ، (بأقطار مترين، ومتر ونصف متر) ، قيل بأنها كانت فى الاصل من حلى زوجة المنصور ، جادت بها لتتوج عمل بعلها ، وأيا كان المعدن الذى صنعت منه ، فما برحت تضوى بانعكاس اشعة الشمس عليها ، فاذا مالت هـذه الى المغيب ، بدت فى الافق البعيـد جبـال الاطلس ، تتوج الثلوج قناتها ، تشرف عليها من علو أربعة آلاف متر قمة جبل « توبكال » .

وفن بنى مرين لا يقل فخامة وجمالا ، وقد امتدت دولتهم من الجزائر الى المحيط الاطلسى ، ومن أقصى الجنوب حتى أقصى الشمال فى الاندلس ولا تكاد مدينة فى المغرب تخلو من أثر مرينى عظيم : فى تلمسان وتازة وفاس ومكناسة وسالا ومراكش وسبتة وغيرها .

وحقق المرينيون فنا أندلسـيا مغربيـا رائعا فى « المدارس » أى مساكن طلبة العلم ، وخاصة تلك التى انشاها السلطان بوعنان .

كان الموحدون بناة معاقل وبيوت عبادة ، أما المرينيون فقد درجوا على الحياة فى مظهـرها الاندلسى ، بيوتهم وقصورهم متعـة للبصر وكذلك مسـاكن النـاس ، والحمامات العامة ، والوكالات ، والبيمارسـتانات ، وأسـوار العيون ، والحصون ، اقيم كل ذلك بفضـل تبرتمبكتو ، بأيدى صناع حذاق فى البناء والزخرف ، قيل بأنهم كانوا يعملون على نغمات الموسيقى الغرناطية!

وسار من جاء بعد المرينيين على الدرب ، وان مالوا الى الاغراق فى الزينة والبرقشة والنقش ، واستعمال « الزليخ » الاخضر الفاقع زخرفا للواجهات والحيطان.

وأجـداث المرينيين والسعديين والعلويين ومدافنهم نماذج جميلة للفن المغربى الاندلسى ، وكذلك الاسـوار

والبوابات والقصبات تأسر الزائر بالوانها الخضراء ، وما اروعه مشهدا اذا وقف المسـافر على مبعدة من فاس او مكناسة ليتأمل هذه الجواهر تحميها الاسوار العتيقة والابراج العابسة وسط الهضاب ، وترتفع فى سمائها الصوامع اللامعـة ، مربعة الاركان ، ما لم نتعود نحن اهل الشرق الاسلامي على رؤيته فى مآذن مساجدنا ، ولا فى بوابات اسوارنا ، الا فيما ندر .

عبور الحدود فراق

رعى الله اياما اذا سر غيرها   فان سروري بعدها متكلف .

ابن سعيد المغربي

لا معنى لعبور حدود البلدان عند ركاب الطيارات : الا أن تعلن المضيفة بمكاننا في الهواء وقت المرور فوق التخوم ، وعرفت في زمان مضى اجتياز الحدود في القطار ، فلم تزد من دخول بوليس الحدود على الديوان ليبصم جوازات المسافرين ، يتبعه رجل الجمارك ليتناول الاقرار ، ويتفرس في أوجه الجالسين ويتأمل الحقائب المرصوصة فوق الشبكة ، وقد يطلب انزال واحدة منها أو اثنتين ، ولا أذكر ان مفتش الجمرك بقي في ديوان أكثر من بضع دقائق .

اما في عربات النوم فانسانية مفتشي الجمارك ، وشرطة الحدود تأبى في غالب الاحيان ايقاظ الراكب ، وتكتفي الشرطة بختم الجواز ، والجمركشي بتناول الاقرار من مندوب شركة عربات النوم .

لم اعرف اجتياز الحدود بالسيارات الا في أواخر الحرب العالمية الثانية بعد تحرير لبنان من ربقة حكومة فيشي ، فعبرت خط الحدود من لبنان الى فلسطين الانتداب . ونسيت الآن كيف عوملنا ، والغالب انا حملنا

الحقائب حتى صالة التفتيش ، وعتلناها عائدين بها الى التاكسى العام .

ولكننى لم انس فى تلك الرحلة كيف عوملت بصالة التفتيش عند وصولى بالطائرة الى مطار بيروت ، وكيف احتجز موظف الجمرك ، أو شرطتها ، اوراقا بخط زوجتى تقدم بها مختاراتها المعدة للطبع ، من دائرة معارف ديدرو ، فما ان قرأ الزلمة فى الاوراق اسماء روسو ، وفولتير ، ودالامبير ، حتى شخر ونفر ، وتوليت عنه سب الشمس والقمر ، ولم يكلفنى الزعيق والغضب سوى ضياع أوتوبيس شركة الطيران ، واضطرارى الى نزول بيروت فى تاكسى خاص ، واحتفاظ زلمة الجمرك بمقدمة ادبية تأليف الحرم المصون ، وقد استرجعنا أوراقها من الفرنسى القائم اذ ذاك على الرقابة فى لبنان الانتداب ، اعادها الينا بمنزله العامر فى بيت مرى على فنجان شاى وبيتى فور .

الجديد فى حكايات العبور حدث اثناء رحلتى الاخيرة بالسيارة ، فقد اجتزت التخوم ست مرات (فرنسا ـ اسبانيا ـ المغرب ـ الجزائر ـ تونس ـ ليبيا ـ مصر) والمرة تحسب مرتين اذ تمر بشرطة جمارك البلد الذى تغادر وبأندادهم فى البلد الذى تدخل .

ولقد ذكرت فى أول فصول الرحلة طيب المعاملة فى كل هذه الجمارك دون استثناء ، حتى فى جمرك ليبيا حين ظهر ان تأشيرة الدخول التى حصلت عليها من قنصلية ليبيا بباريس « طايحة » ، فسألت الجندى الحارس عن معنى « طايحة » فى هذا الصدد ، لاننى لم أر رأس التأشيرة فى مكان وجثمانها فى مكان آخر .. قال : «طايحة » ما بيمكن الدخول ، ضحكت وقلت له ان من حقى على الاقل ان اجتاز البلاد فى حدود ٧٢

ساعة ، ورجوله التوجه الى ضابطه ، وعلى الله التساهيل ، واتحفت بتأشيرة جديدة بدل « الطايحة » (ولم يمض عليها أكثر من شهر !) وطوابع من الفئات العالية !

ومع الرقة وحسن المعاملة ، فان عبور الحدود فى افريقيا يستغرق وقتا غير قصير ، مرده الحب المتبادل بين البيروقراطية ،وبين الاستمارات والاختام والطوابع

انما اعنى فى هذا الفصل بشعور الرحالة عندما ينتهى من زيارة بلد ويتجه الى البلد المتاخم ، والعادة أن يقضى المسافر ليلته فى اقرب مدينة الى الحدود ، وكانت مدينة الجزيرة « الخيثراس » فى الطرف الجنوبى لاسبانيا و « وجدة » بالمغرب و «عنابة» (بون) بالجزائر ، و«قابس» بتونس و«طبرق» بليبيا ، واحمل من هذه المدن جميعا أطيب الذكريات ، مع شعور غامض مبعثه فراق الماضى ، وتوقع المستقبل . نهاية حقبة ، وبدء حقبة ، غروب شمس وترقب شمس جديدة ، وتحول من نقد الى نقد ، ومن رنين لغة أو لهجة الى لغة او لهجة أخرى .

أجمل مدن التوديع كانت « الجزيرة الخضراء » بموضعها على بحر الزقاق وفندقها الفخم بحديقته الغناء المطلة على البحر ، اشبه بحدائق القصور الكبيرة والغالب ان الفندق قصر معدل . كنت حزينا لوداع الاندلس ، وكان آخر عهدى بها اشبيلية « الخيرالدا » وحى « سانتا كروث » و « برج الذهب » حارس « الوادى الكبير » .

« قال الرازى : « مدينة الجزيرة الخضراء من ارشق المدن وأطيبها ، وارفقها بأهلها ، واجمعها لخير البر والبحر ... ومرساها أحسن المراسى للجواز وارضها

ارض زرع وضرع ونتاج ..

« قال ابن سعيد المغربي : لما رجعت اشبيلية الى ابن هود ولى علي الجزيرة الخضراء والدى ، فقمنا بها مدة في عيش يجب ذكره والحنين اليه ، وفيها أقول :

رعى الله أياما اذا سر غيرها
فان سروري بعدها متكلف

« وعندما يخرج الانسان من بابها ، يجد المياه الجارية والبساتين النضرة ونهرها يعرف بوادي العسل سمي بذلك لحلاوته » . (المقرب في حلى المغرب)

ذهبت في الصباح الى ميناء الجزيرة ودخلت أقود السيارة الى موضعها من المعدية الكبيرة ، ثم ارتقيت الى سطح السفينة أتامل صخرة «جبرولتار» واتفحصها بالمنظار المقرب ، ولم يكن لي هم اثناء ساعة العبور (٣٠ كيلومترا) من الجزيرة في اوربا الى سبتة في افريقيا سوى التطلع الى بوغاز جبل طارق ، وصخرة طارق ، والتفت الى طرف أوربا ثم الى طرف افريقيا دواليك ، بوغاز أراه لاول مرة على تكرار ذكره في محاضراتي على طلبة الدراسات العليا لعلوم البحار بجامعة الاسكندرية ، وما عرفته من تياراته السطحية والعميقة : واتصالاته البيولوجية الهيدروجرافية بين البحر المتوسط والمحيط الاطلسي .

عندما دخلت المعدية ميناء سبتة الافريقي ، غاب عني انها مدينة تابعة لاسبانيا ، لاسيما وان جواز السفر وتفتيش الجمرك قد اجريا في ميناء الجزيرة ، فمررت بجمرك سبتة على ظن اني ادخل بلاد المغرب واذ بنا نغادره ركوبا ، دون ختم الباسبور .. عجيبة ! وقطعت بالسيارة غلوة على الكورنيش اتساءل : وماذا أصنع عند خروجي من المغرب الاقصى ، فلا يجدون على الجواز

تأشيرة دخول ؟ وفكرت بان أعود ادراجي حين ظهرت شرطة المغـــرب على مفرق طريقين ، ووجهت ســـيارتنا الى الطريق الداخلى ، المنفصل عن طريق الـــكورنيش، فما هي برهة حتى وجدتنا فى الدائرة الجمركية للمملكة المغربية الشريفة .

.. بمدر خطأى ان طنجة كانت مقيمة على وضـــعها الدولي عند زيارتى الاولى للمغرب (١٩٥٨) ثم علمت بعد ذلك انها ردت للمغرب وهــذا سر رحالتها العظيم محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى ، المعروف بابن بطوطة (طنجة ١٣٠٤ ــ فاس ١٣٧٧ م) وظننت انها آخر ما للمغرب من ارض يحتلها الآخرون .

اما حزنى الاعمق فقد كان يوم خروجي من مكناسة ، المدينة الساحرة فى اتجاه الحدود بين المغرب والجزائر ، على طريق طويل يعبر فتحة « تازه » وهى الممر الهام جدا بين جبال الاطلس وجبـــال الريف ، وكانت باب العزو من الشرق . وصلت الى مدينة « وحدة » الهادئة الناعمة ، فسيحة الطرقات فى شطرها الحديث ضيقة المسالك مزدحمة فى شطرها القديم : « المدينة » أشبه بحى سوق الزلط والميدان بباب الشعرية .

وفى الصباح الباكر اجتزت الحدود راسا الى تلمســان حيث تناولنا الغداء بعد جولة سريعة بالمدينة التاريخية مساجدها وقلعتها وقد شـــاركت تلمســـان فى تاريخى المغرب والجزائر، كما سأبينه فى حديثنا عن بلاد الجزائر واستأنفنا الســير الى وهران فوصلنـــا فى المساء ، ولم ترق لنا الاقامة فيها ، فهى مدينة حديثة وميناء كبير، ومركز تجارى ، لا اثر فيها سوى كنيسة اسبانية قائمة على مرتفع شاهدتها من نافذة الفندق .

وانتابنى شـــعور الفراق والانتزاع فى نهاية تجوالى

بالجزائر عندما وصلت الى عنابة لاقضي فيهـا الليـلة السابقة على المجاز الى البـلاد التونسية . لم أقم فى عنابة ذاتها ، وانما ارتقيت الى ضاحية لها تطـل على البحر من ربوة عالية (٩٠٠ م) انشـأ فيهـا معمارى فرنسى فندقا على نمط ما يعرف فى بلاد القبائل وجبال الاوراس (بالقصـور) وهى بيوت البربر تتجمع على سفوح الجبال كأنها القلاع . اسم المعمارى بويون ، كان من أشهر مهندسي باريس ثم قضى فى السجن سـنوات بتهمة التبديد أو شيء من هذا ، نتيجة حيـاة البـذخ والعظمة التى كان يعيشها فى عاصمة فرنسا .

وعندما هبطت من الضاحية الى عنابة فى صباح اليوم التالى ، يممت شطر « سوق الاحراز » (وللاسم عندى رنين المواقع بين جيوش الحلفـاء والنـازية فى الحرب العالمية الثانية) ، ومنها الى « غار الدماء » (جارديماو) البلدة التونسية على الحدود ، ثم اندفعت تاركا ورائى الوعر والجبال ومسالـكها الحلزونية الى السهل الممتد من غار الدماء الى « جنـدوبة » و « بجا » و « مجاز الباب » (ذكرى المعارك المشار اليها) فمدينة تونس ، ولم ادخلها بل سقت توا الى ضـواحيها على شـاطىء بحرنا .. ابحث عبثا عن فندقى القديم الى جانب معهد سلامبو الاقيانوغرافى ، وضحكت من نفسى وانا اشبهنى بأهل الـكهف ، أتوقع بعد أربعين سنة أن ارى الناس هم الناس والبيوت هى البيوت ، واذا بضاحيتى سلامبو وقرطاج وغيرهما قد تحولت الى مصايف من اجمـل ما ترى العين فخامة بناء ونظافة طرق ، ومطاعم وفنادق وكازينوهات ، فنزلت بفندق من أفخم فنادق البـلاد التونسية ، يحمل اسم ابى هانيبـال ، ومنه بدأت استيحاء ذكرياتى القديمة فى قرية سيدى بو سعيد ،

تحفة فى سلامة الذوق والبساطة ، واذا لم تفقد سلامة الذوق فى مبانيها على النمط الاندلسى المغربى ، فقد تحولت الى فيللات انيقة ، لم اعرف منها فى شبابى سوى فيللا العلامة الموسيقى الفرنسى البارون ايرلانجيه ، ناشر ترجمات كتب التراث العربى فى الموسيقى وكان البارون واحدا من منظمى مؤتمر الموسيقى العربية عام ١٩٣٢ ، زاره حينذاك أمين عام المؤتمر صديقى الاستاذ الدكتور محمود أحمد الحفنى ، وتداول معه فى الاعداد للمؤتمر الشهير .

ثم حلت ليلة الوداع للقطر التونسى فى فندق على البحر بمدينة قابس ، صورة من التنظيم السياحى السديد الذى قامت به الجمهورية الشقيقة بعد تحقيق استقلالها بزعامة المجاهد الكبير الحبيب بورقيبة .

وفى الصباح اجتزت طريقا معبدا وسط مناطق عفرة جفرة الى « مدنين » ومنها الى « بن قردان » فنقطة الحدود .

دخلت ليبيا متجها الى طرابلس وقضيت ليلتين قبل ان ابدأ الرحلة الطويلة جدا فيما بين طرابلس وبنغازى (١٢٠٠ كيلومتر) ، وقد سعيت الى حل لتقسيم الطريق الى مرحلتين ؛ وكان مواطن ليبى قابلته فى صفاقس قد دلنى على محلة فى نحو منتصف الطريق تسمى سيرتا ، قضينا الليلة بها فى نوع من النزل البدائى تعشينا فيه بسمكة صادها لنا صاحب النزل ، اطعمنا منها لحما وشوربة .

وواصلنا السير فى الصباح الباكر الى بنغازى ، وكنا قد مررنا فى النصف الاول من الطريق الطويل بزليطن (لبتس ماجنا الرومانية) ومصراطة والبويرات ، وبعد سرتا مررنا براس سندرة ، ومرسى العويجة (ذكرى

الحرب) ومرسى بريجا والعجيلة واجدابية (شرحه) ، وتتركز فى خليج سدرة موانى بترول الجمهورية الشقيقة

لم تترك طرابلس فى نفسى اثرا ، فهى خليط من المدينة العصرية والمدينة الليبية ، وليس فيها سوى موقعها الجميل على البحر وروضة لا بأس بها ، اهم منها امتداد الكورنيش بطول المدينة .

وبقيت فى بنغازى اكثر من ليلة لاتمكن من زيارة « طلميثه » ، وبعدها اتجهت الى طبرق وعرجت فى الطريق على موقع مدينة « قيرينة » القديمة ، وقد اخطأت الطريق اليها مرتين من جراء غلطة طفيفة فى الخريطة وجهتنى من ميسا الى حانيا ، قطعت نحو ثلاثين كيلو مترا ربحة جيئة لاكتشف فى حانيا انه حتى رجال الشرطة ، لا فكرة عندهم من وجود آثار قديمة على مقربة منها ، ثم نبهتنى مطوية سياحية محلاة بالصور عن قيرينة ومحررة بالالمانية الى فقرة تقول بأن قيرينة هى قرية « شحات » ، وهنا تكشف لى الطريق اليها متفرعا من البيضا الى الشحات ، ومنها الى قيرينة .

وهذه هى اجمل الآثار القديمة فى ليبيا ، اشرفت عليها فى نهاية الطريق من عل ، ولقيت شابا ليبيا جالسا على جانب الطريق يتأمل المدينة اليونانية ، لم أتوقع أن يعرف الفتى عنها شيئا ــ كما حدث مع شرطة حانيا ــ واذ به شاعر يتغنى بسحر الموقع ، وما تبقى من آثار به تشهد للمدينة بصدق ماتقوله المطوية السياحية « قيرينة سر من اسرار العالم القديم ، بل هبة من الطبيعة ، لوحة لفنان موهوب ، أسطورة لشاعر مبدع ، هى مدينة « الخرائد الثلاث » ربات الجمال والتناسق والهناء ، من اجمل مدن الاغريق القدماء

لا تتفوق عليها سوى أثينا ، وصفها الشاعر بندار بقصيدة يقول فيها : « المدينة المقامة فوق تاج من ذهب » .

وليس فى كلام الاعلام السياحى مغالاة ، فالمدينة والمدرسة الفلسفية المعروفة باسمها : « القيرينيات » ، تشغل ثلاثة أعمدة ونصفا من المجلد السادس للموسوعة البريطانية ، وتحدث عنها هيرودوت فى كتابه الرابع حديثا ممتعا ، تقع على سفح الجبل الاخضر ، انشأها اغارقة هاجروا من سانتورين بسبب مجاعة ، واقلعوا جنوبا حوالى عام ٦٣٠ ق . م حتى بلغوا الموقع ، حكمتها أسرة ملكية مدى ثمانية أجيال ، كانت فيها مركزا اقتصاديا نافقا ، وانشات تلك الاسرة فى القرن السادس ق . م ، ميناء « أبوللونيا » (مرسى سوسة حالا) ، ثم « برقة » (المرج حالا) واخيرا مدينة « الاسبريدة » (بنغازى فيما بعد) ..

دخلت قيرينة فى حكم البطالسة عام ٣٢٢ ق . م ، وقد انشأوا ميناء لمدينة برقة سمى « بطليموسة » (طلميثة حالا) احتفالا بعقد قران بطليموس الثالث على برنيقة أميرة برقة ، وغدت قيرينة واحدة من المدن الخمس (بنتابوليس) : ابوللونيا ، بطليموسة ، توشيرة ، وبرنيقة ، وهى الخمس مدن الغربية التى ترد فى القاب قداسة بابا الكرازة المرقسية : بطريرك الاقباط .

وقد وضع بطليموس فيلادلف دستورا لقيرينة ، يحتفظ متحف البلدة بنسخة اصيلة منه ، وكانت قيرينة فى تلك العصور مركز عرفان وثقافة من مراكز العالم القديم ، اشتهرت بمدرستها الطبية ، ونبغ من ابنائها : ايراطوسطين العلامة الجغراف الكبير بمدرسة

الإسكندرية ، والفلاسفة كارنيادس ، واريستيب منشيء مدرسة القيرنيات فى الفلسفة (الهيدونية) ، والشاعر كاليماخوس ، وقد عاش فى الاسكندرية وعينه بطليموس فيلادلف مديرا لمكتبة الاسكندرية ، دخلت فى حكم الرومان سنة ٩٦ ق.م ، وعاشت فى رخاء نسبى طوال القرنين : الاول ، والثانى للامبراطورية الرومانية ، ثم بدات فى التدهور من جراء زلزال ، وبدا اهلها فى الهجرة وانتهت حياتها بالفتح العربى عام ٦٤٢ م .

وفى زيارتى لطلميثة ، رأيت أكثر مناطق الآثار اتساعا فى ليبيا ، كانت ميناء لمدينة برقة (المرج حالا) منذ عام ٢٤٧ ق . م ، وكان لها أسطول تجارى وحربى ، وعلى خلاف قيرينة ، بقيت شهرة مينائها التجارى بعد الفتح العربى ، وكانت متصلة بالاسكندرية بخط ملاحى تبادل عسلها والزبد والجلود والغلال بالغزل والنسيج من الاسكندرية .

ثم كانت مدينة الوداع فى ليبيا هى طبرق ، قضيت الليل فى فندق خارج أسوار المدينة الحصينة (ذكرى تسليم حاميتها الاسترالية النيوزيلندية للالمان فى الحرب العالمية الثانية !)

هذه مدينة وداع الرحلة الطويلة التى بدات من باريس فى ١٧ مايو وانتهت فى الاسكندرية مع ختام شهر يونية ١٩٧١ ، ولكنها لم تكن ليلة شعور بالفراق والانتزاع ، بل ليلة الفرحة باللقاء القريب بارض الوطن الحبيب ، بعد غياب ثلاثة اشهر : كيف قدرت يارب فى شبابى أن تمتد غيبتى عن هذا الوطن الى خمس سنوات

وهنا افضل تأجيل حديثى عن العودة الى خاتمة هذه الفصول ولنستأنف الرحلة وقد انتهينا منها عند المغرب الاقصى .

وحان الجواز الى الجزائر ..

بين الماضي والحاضر في بلاد الجزائر

وجدتها « اوريكا » ، كلمة السر في مأساة الجزائر ، والكلام على هذه البلاد العزيزة لايمكن أن يقفل ضحايا الحرية من اهلها، غلمانا وشبابا ، نساء ورجالا ، كهولا وشيوخا ، وقد تنسيك العاصمة بازدحامها ونشاطها وحركة مينائها الكبير يطل عليه الكورنيش بعض ذلك الهم ، فالعواصم بحر متلاطم الاذى ، والسائح فيه قنينة مختومة على هواء ، يشيلها الموج ويحطها .

أما في جبال الاوراس والقبائل ، في السهل والحزن، في بجايا أو سطيف أو تيزى أوزو ، فان غمامة من الحزن الدفين تغلف نفسي بغلالتها الخفيفة ، اذ اذكر بعض الاحداث الرهيبة من غدر الانسان بالانسان ، وارتفاع الرحمة حتى عن ارق القلوب ، عندما انفجر غضب المغلوب على الغالب ، وصاحب الارض على الغاصب ، فكانت ثورة الالفين وسبعمائة يوم .

حزن ماض ، مثل تعريف « الفعل » اذا صدقت ذاكرتي (حدث والزمن جزء منه) ، والفعل الماضي يجمع بين أمرين ، حدث وزمن فات كما يقول النحويون، وفواته لا يعني نسيانه .

« اوريكا » ، وجدتها : عبارة منقوشة على الصخر (لابيدير) ، حاسمة كالسيف ، في كتاب سياحي صغير

اصـدوله عام ١٩٣٠ سـكة حـديد باريس ـ ليون ـ مرسيليا ، صفحاته خمسـون ، أهدانيـه مكتب كوك بباريس قبل سفري الاول الى تونس في ذلك العام ، ومنها الى الجزائر ، فالعودة الى باريس..
عنوان الـكتيب : « الجزائر ـ مراكش ـ تونس» ، يحتوى على مجمل معلومات أساسية للزائر ، ومقـدمة لمن يطلب التعمق ، والعبارة التى وجدتها جاءت تحت عنوان : « الحكومة الحالية فى الجزائر » ، وهى :
« الجزائر ارض فرنسية ! ! »

أى والله! هذه والفتاة الفرنسية التى قابلتها بباريس ووصفت نفسها بانها جزائرية فحسبتها مسلمة من أهل تلك البلاد ، واذ بها تنكر ان هؤلاء جزائريون .. امال يبقوا ايه يا آنسـتى المانوسة ، النوسة ، كوانوسة ؟.. قالت بلسـان فصيح : سوسون ديزاراب : (انهم عرب) .
«الجزائر ارض فرنسية» ، وجواب الآنسة الفرنسية الجزائرية ، وما الى ذلك ، فاتحة شهية على القرف الذى عراني فى اول زيارة لمدينة الجزائر ، فلم اقو على البقاء فيها سوى يومين ، أو بعض يومين .

والـكتاب الصغير لايتركنا للعجب ولا للصيـام فى رجب ، قبل أن يثبت زعمه ، فيعقب بعد شـولة بانها ضمت (أقرأ مضغت وابتلعت) عام ١٨٤٨ .

فلنتابع المنطق اللاتينى : اذا كانت الجزائر ارضـا فرنسية ، فلماذا لا يصبح المسلم ، من العرب والبربر، جـزائريا مثـل الآنسـة المولودة بالجزائر من اب وام فرنسيين ؟
يجيبك الدليل البليغ عن هذا :انما التمييز ـ او « الخط الفاصـــل » بين الاثنين ـ هو فى الاحـوال

الشخصية ، فالفتاة الجزائرية مواطنة فرنسية ـ حتى لو كانت ايطاليـة او اسبانية أو مالطيـة أو يهودية ، بحكم ان كل هؤلاء « قبلوا بأن يجرى على اشـخاصهم واسرهم وممتلـكاتهم القـانون المدنى الفرنسى . . . فالجزائر ليست فى قليل أو كثير مستعمرة على طريقـة الدومنيون الانجليزى ، انما هي تؤلف ثلاث مديريات فرنـسية ، تحكم اسـاسـا بواسطة وزراء فرنسا ، وتشرع قوانينها فى البرلمان الفرنسى ، وهى تنتخب ، أو فى الاقل : ينتخب المواطنون الفرنسيون بالجزائر ممثلـين لهم فى مجلس النواب والشـيوخ بباريس ، وتحميهـا وحدات من الجيـش والبحـرية الفرنسية ، الجزائر امتداد لفرنسا » .

ويظهر ان المسالة لم تمض بهذا اليسر فى «الحلقوم» فقد تعدل هذا النظام بشلوط مفيد ، عندما تعدل نظام حكم الجزائر سنة ١٨٩٨ وما بعدها الى لامركزية ادارية بانشاء وظيفة « حاكم عام » للجزائر يقوم بأعباء الادارة نيابة عن الوزارة الفرنسية .

هـذا ما جعل من حرب التحرير التى بدات فى ليلة ٣١ اكتوبر ـ أول نوفمبر ١٩٥٤ ، مأساة شعب بأكمله ، لم يقف ضد نصف مليون جندى فحسب ، بل ضـد نحو مليون من الاسـياد المستعمرين ايا كان اصـلهم ومنبتهم ، وقد وصموا أنفسهم بنعت قبيح : فهم ذوو « الاقدام السوداء » ، والاحق أن يكون السـواد صفة لقلوبهم قبل اقدامهم .

فحين بدأ الفرنسى العظيم الجنرال ديجول مشروعه لتحرير الجزائر بوسيلة ديموقراطية (الاستفتـاء) ، ثارت «القلوب السوداء» ، وتألبعليه القواد الفرنسيون فى الجزائر ، وناصرتهم حركة محلية امتدت الى فرنسا

ذاتها باسم « تنظيم الجيش السرى (اوه ـ آه ـ اس) تهاجم بالديناميت حتى بيوت وزراء ديجول واعوانه ، وقام منهم ضابط مهندس على راس مؤامرة لاغتيال الجنرال ، كادت تنجح حينما أطلق المتآمرون على سيارته القنابل والرصاص ، وهو عائد الى جانب زوجته من المطار الى قصر الاليزيه ، واعدم راس المؤامرة رميا بالرصاص .

وان النفس لتتقزز من ذكر الجرائم الرهيبة التى اقترفها الجيش المحتل و « الاقدام السوداء » مدى نيف وسبع سنين ، واليك ما سجله الكاتب الجزائرى مولود فرعون فى آخر « يوميات معركة الجزائر »ترجمة الاخ عبد العاطى جلال .

« ١٤ مارس ١٩٦٢ : الذعر يغشى الجزائر، والناس يسيرون على كل حال ، من يسعى فى طلب العيش ، أو يؤدى على الاقل مطالبه ، يخرجون دون ان يعرفوا ما اذا كانوا يرجعون او يسقطون صرعى على قارعة الطريق ، كلنا هكذا : الشجعان والجبناء ، لدرجة أن يسأل الانسان نفسه عما اذا كانت الخصلتان : الشجاعة والجبن ، حقيقة موجودة ، أو هما وهم بلا حقيقة حقة ، كلا ثم كلا ، لم يعد المرء يميز وقد اصبحنا بلا مشاعر ولا ادراك ، بفعل حياة الخوف التى نحياها »

وفى اليوم التالى لتاريخ هذه المذكرة ، فى ١٥ مارس ، وفى حى البيار فوق مرتفعات مدينة الجزائر ، اطلق افراد المنظمة السرية اثنتى عشرة رصاصة على مولود فرعون ، أردته قتيلا .

***

سألنا شيخا جليلا فى شارع ديدوش مراد عن حانوت يبيع الخرائط ، فسار معنا غلوة يحدثنا بلغة فرنسية

انيقة عن ذكرياته فى فرقة الاصباحية مع الجيش الفرنسى فى سنوات الحرب الكبرى بالميدان الغربى .

قلت لرفيقة السفر : مثل هذا الرجل قبل التحرير، كان يزهو بأوسمة الجمهورية الفرنسية على صدره ، فلم تحم انداده ، ولا أولادهم واسرهم أوسمة ، ولا مؤازرتهم لفرنسا فى محنتها الكبرى تنافح عن ارضها ضد جحفل غليوم الثانى ، ألم يرد الشاعر رابندرانات طاجور أوسمته ولقب سير الى بريطانيا بعد مذبحة امرتسار ؟

***

معرض لمنتجات فنية صنعها الصبية ، وهم واضحو المواهب ، مثل الاطفال والصبية فى كل مكان . لفت نظرى فقر الخط العربى فى لوحات العرض ، وضعف كبير فى قواعد النحو ، وبيت من الشعر ـ فريد معرضه ـ لا اذكره الآن ، ربما كان « وانما الامم الاخلاق .. » أو شيئا من هذا القبيل ، يعوزه المجبراتى لكسر بسيط فيه .

سألت الشاب المشرف ان كان يلاحظ امرا فى ذلك البيت ، اجابنى : « هذا جاء الينا من الادارة الثقافية» صححت له البيت ، ورجوته أن ينفذ الترميم .. ولعله ينتظر وصول « المقايسة » من الوزارة « لنهو » اللازم الى يومنا هذا .

تألمت ، لعلمى بما امام هذه البلاد من جهد ومكابدة قبل أن يستعيد اهلها التحكم فى لغتهم الشريفة ، دون أن يفقدوا اجادتهم الملحوظة للغة الفرنسية ، مثلما

خسرت أجيال من الشباب عندنا ما كسبته أجيالنا من حرص البخيل على لغتنا ، مع اتقان لغة اوربية واحدة على الاقل الى جانبها .

ولست أشك فى انهم بالغون ما يطمحون اليه من تعريب حياتهم الثقافية .. فنحن لا ننسى ان كرامة من كرامات القرآن هى التى حفظت شعب الجزائر من الانحلال توطئة للزوال ، لان رفضهم القانون المدنى الفرنسي ، ذلك الرفض الذى حال بينهم وبين «شرف» المواطنة الفرنسية ، ونزل بهم الى درك الاستعباد ، هو الذى حفظ عليهم قوميتهم .

***

قضيت الليل بمدينة « مليانة » بمنطقة جبل زكور ، فى طريقى من وهران الى الجزائر . يجب ان تقوم لهذا المكان قداسة فى التاريخ القومى للبلاد. هنا آخر معقل للحرية ، وقف به الامير عبد القادر الجزائرى آخر وقفة لمقاومة الفرنسيين الغزاة . لم اقف عمدا بمليانه ، بل ولم اكن اعرف مكانتها من تاريخ القضاء على حرية الجزائر ، انما الطريق الذى اخترته لم يكن المسلك المطروق ، بل كان الطريق المحاذى لشاطىء البحر جبالا بعد جبال ، وتلالا تلو تلال ، يفرض سلوك هذا الطريق اجتياز واحدها بعد الآخر صعدا حلزونيا نذهب فيه الى ارتفاع مئات الامتار ، ثم ما نلبث حتى ننحدر حلزونيا الى مقربة من سطح البحر ، لنكابد تسلقا جديدا فهبوطا ، قد تسير غلوة قصيرة فوق هضبة ، لتعود الى اللف والدوران صعودا ونزولا حتى تتعب قدماك فوق البدالات ، ويداك على عجلة القيادة تديرها يمنة ويسرة ، مع الحرص الشديد فى المنحنيات الحادة — وما اكثرها فى الجبال ويشبهونها بدبوس الشعر — واكثر معبدى طرق الجبال لا حيلة لهم فى توسيع هذه المسالك الى اكثر مما يمكن — « يدوب » — سيارتين من المرور متقابلتين فى اتجاهين .

ما أقل ما التقينا به من سيارات خاصة فى هذا الطريق ، كلها ، فيما عدا النادر ، كاميونات صغيرة تحمل تجارة او حجارة ، عبر مجرى مياه ضحله او جافة ، تعبرها قناطر ضيقة لا تتسع لغير سيارة واحدة ، وواحدة من هذه القناطر كانت مجرد الواح خشبية متراصة .. دون حواجز .. وماء المجرى ينساب من تحتها ، ويعبر فوق منتصفها فيما يشبه حركة الماء فوق السلسبيل ، تصور أن تعبر فوق قنطرة دون حواجز ، تتسع لسيارة واحدة ، وعليك أن تخوض بها ماء السلسبيل .

واخطر من ذلك أن ترقى الى مرتفع شاهق : لتسوق على شفا جرف هار .. كلا ، ليست هذه صيغة شعرية ، فأمامك لوحات مكتوبة تحذرك من السير على حافة الطريق ، فتتعرض لخطر انهياره والتردى فى الهوة السحيقة ، لتستقر غالبا .. فوق البلاج .

وعلى الرغم من كل هذه الصعوبات ، لم تكن المخاطرة ثمنا مرتفعا لروعة المناظر وسط الارض الخضراء الى جانب بحرنا الابيض اسما ، واللازوردى أو الفيروزى ، ترصعه الشمس بحبب الماس .

كل ما كنت أخشاه من المغامرة اللذيذة ، أن لايضيق بنا النهار ذرعا فيتركنا للغسق ودجنة الليل فى تلك المعابر الوعرة المخيفة .

تناولنا الغداء عند بلدة تينس فى فندق فخم يطل على البحر ، مزدحم بأغلبية من السياح الالمان .. هؤلاء الشماليون يعشقون الجنوب عشقا ، ويذوبون حبا .. فى رمال البيداء .

لم يكن ممكنا أن نبلغ الجزائر قبل الليل ، حتى لو حرمنا أنفسنا من الغداء ، لا مناص اذن من الالتجاء

الى اول قرية أو نجع يأوينا ، وهدانا السبيل بعد لأى الى مليانة ، دخلناها بليل ، حيث لقينا اللقمة البسيطة والمنامة والدكان ـ جراج .

هكذا رتب القدر أن أقضى ليلتى فى مليانة ، آخر معقل من معاقل الجهاد فى سبيل الحرية ؛ وقف فيه البطل الخالد ، الامير عبد القادر الجزائرى .

***

أقرب مكان الى قلبى فى عاصمة الجزائر ـ على ما فيها من جمال وأناقة وترف ونعيم ـ هو « قصبتها » الفقيرة ، ضيقة المسالك الطالعة النازلة ، وسط بيوت يشد بعضها بعضا ، وتكاد تتساند عبر الطريق من أعلاه .. كانت « القصبة » حصيلة رحلتى الاولى (المبتورة) ، عدت اليها فى رحلتى الثانية وقد حلت فى ربوعها الحرية ، والحرية أغلى وأنظف وأجمل وأكمل، ما يتحلى به الانسان على الفقر وشظف العيش وضيق المثوى .

وزرتها فى رحلتى الثالثة وهى التى تفرغت فيها لزيارة سياحية ، اخترت السكنى فى مواجهة أحب بحار العالم لدى رجل كانت مهنته دراسة علمية للأقيانوس (الاقيانوغرافيا) . لم أر فى مدينة من أرشق مدن العالم موقعا ، ما يسترعى النظر كأثر ذى قيمة كبيرة ، وكان كل أثر فى هذا البلد يفرض عليك العودة الى مأساة الاستعمار الطويل ، فكان مسجد من المساجد الذى أطلت زيارته قد تحول بعد الغزو الى كنيسة ، وأعاده أبطال التحرير الى ماضى انواره ، ما أقرب أن يصنع فرنسيو القرن التاسع عشر ـ أبناء ثلاث ثورات! ما صنع الاسبان المتعصبون بأماكن العبادة فى حرب الاسترداد قبل ختام القرن الخامس عشر ، وما بعده

.. وما صنع محمد الفاتح بكنيسة أياصوفيا عقب استيلائه على القسطنطينيه ! لم يكن المستعمر فقيرا ، ولا كان انصرافه عن البناء تراخيا ، وانما كان التعصب واذلال انسانية اهل البلاد هو الدافع الى العمل الخسيس .

والادهى أن تأتى حكومة الجمهورية الثالثة ، العلمانية ، فعلا بغيضا اذا فى الايالة التونسية ، وفى الربع الثانى من هذا القرن العشرين ، وليس لها فى تونس اى حق الا اذا كان بسط الحماية بالعافية والزور والجشع الاستعمارى يعطى حقا ، ولا انقل هنا كلاما سمعته ، او تواتر اخبار ، فقد تصادف أن كنت أقيم فى تونس ، وشهدت بعينى رأسى واقع المؤتمر « الافخارستى » ، الذى نصب هناك فرضا على ذلك البلد الاسلامى ، احياء لذكرى مستعمر صليبى قديم ، لويس التاسع ، الملك القديس ، المغلوب على أمره فى بيت لقمان بالمنصورة ، والمتوفى بالطاعون فى موقع قرطاجة بضواحي تونس .

***

قمت من قسنطينة لاقضى يوما فى آثار « تمجاد » المدينة الرومانية شبه الكاملة ، على بعد ١٥٠ كيلومترا ، انشئت عام ١٠٠ م ، فى حكم الامبراطور تراجان على أقدام جبال الاوراس وارتفاع ألف متر ، وفاتنى ان أواصل السفر لاقضى ليلة فى واحة بسكرة (على بعد ٢٤٥ كيلومترا من قسنطينة) فجمالها جدير بزيارة ، وآسف على هذا التقصير ، وعذرى انى ، وأنا عارف بأن عقبة بن نافع الفهرى - فاتح المغرب ومؤسس القيروان - توفى فى بسكرة لم اكن أعلم ان له بقرب الواحة مقاما ومزارا ، عرفت ذلك بعد عودتى الى مصر

وانا اطالع ما كتبه صديقنا الاستاذ جاك بيرك ، المولود فى الجزائر ، حين عاد الى ربوعها سنة ١٩٦٥ ، قال :

« هل القى الاصالة التى عهدت فى مقام سيدى عقبة ؟ وا اسفاه ، كان هناك دليل تافه يسرد بفرنسية المواخير تاريخ الفاتح العربى مضمخا بالصلصة الاستعمارية ، البناء يتداعى ، والاكلمة تدخن عقارا ، والبنديرة المهلهلة مرخية ، زميلى فى الرحلة يبدى غضبه ، وشعورنا بالزيف يمسك بخناقنا ، لقد تحول البطل العربى الى صورة كرت بوستالية ، اجتذابا وتسلية للسائحين ، صورة المفارقة لحداثة العصر .

« يا اخوانى الجزائريين ، ما اكثر ما عليكم عمله ، او بالاولى اعادته الى اصله ، او فتح الطريق امامه ليكون : . . . »

وحتى جهلى بوجود قبر لعقبة فى بسكرة لايكفينى عذرا عن تخلفى لزيارة اجمل واحات الجزائر ، وقد قرات عنها فى شبابى (اندريه جيد) ، والتى اقام فيها ردحا الموسيقى المجرى العظيم بيلابارطوك ، يدرس موسيقى اهل الواحة ، وقد وضع فيهما بحثا قيما اهدتنى الحكومة المجرية صورة فوتوغرافية لصفحاته .

***

بالجزائر ثلاث مدن يجب الا تفوت الزائر مشاهدتها، بعد العاصمة ، اولها تلمسان ، وآخرها قسنطينة وواسطة العقد بينهما بجاية .

واقليم بأكمله يتعين على السائح ان يرتاده ولو عبورا : منطقة القبائل ، وجبال الاوراس ، فمن هنا انطلقت الشرارة الاولى عام ١٩٥٤ فى ثورة التحرير .

وقضيت لحظات فى بجاية اتناول الغداء ، واذا بصاحب النزل يستاذن فى ان يتحدث الينا ضيف من

ضيوفه ، وهو شخصية من شخصيات حركة التحرير، تبادلنا الحديث من أول وهلة وكأننا أصدقاء ، بل أقرباء . أكرمني وحرص على أن يرافقني بعض الطريق، ويدعوني الى مكانين على شاطىء البحر ، نشرف منهما على « الكورنيش الذهبي » ، لاحظت ان القوم يستقبلون مضيفي باحترام ، أعجبتني فيه أصالته وصراحته . . . وتواضعه ، يتكلم الفرنسية كأهلها .. دون التحرج من القول بأنه لم يتخرج من جامعة ، ولا حتى من ليسيه ، على حد قوله .

يمثل عندي الامل في المستقبل ، وقد كان يجاهد شابا في خمسينات القرن ، وهو اليوم رجل أنضجته التجربة العنيفة . . . هؤلاء هم أساتذة الجيل ، وليس ضروريا أن يحملوا درجات جامعية ليبثوا في شباب الجزائر روحا جديدا . ما اجمل أن يحقق الآباء في تعليم ابنائهم ، وابلاغهم أقصى درجات التخصص مع خلفية عميقة من الثقافة ، ما لم يتح أن يحققوه لانفسهم ، بهذا تنشأ الاجيال التي تحرك التاريخ . . .

رافقني زعيم بجاية بعض الطريق نحو سطيف ... والغروب دان ، وعلى قطع الطريق الى هذه المدينة قبل ان يجن الليل ، فهو طريق جبلي وعر ، وفي سفري من الجزائر الى قسنطينة ، كررت اقتحام الطرق الحلزونية، التي عانيت فيما بين وهران والجزائر ، علام التوبة ؟ الم يقولوا في المثل السائر : « يموت الزمار.. الخ ؟ »

بلغت سطيف في حلكة الليل ، واتخذت الطريق الطوالي الى قسنطينة (حوالي ٢٠٠ كيلومترا) لا الوي على غير سيارة اتبعها ، مع الامل ان لا تخلو بي في الطريق لتقف في محلة او قرية . فزت بها ، وكان سيرها منتظما (١٠٠ كيلومتر ـ ساعة) ، فيما عدا ما

يقتضيه الحذر عند ظهور ضوء سيارات فى الاتجاه المضاد ، وهذا وحده من اخطار سواقة الليل الحالك ، تابعت السيارة .. كظلها ، أو على خط نورها الاحمر، حتى بلغنا مداخل المدينة ، ثم وسطها ، واستمرت السيارة القائدة حتى دلفت الى حى سكنى متطرف ، ووقفت امام دار خاصة ، فاسرعت الى صاحبها اعتذر له عن مطاردتى المشبوهة ، واشكره على ما اداه لى من خدمة دون علمه ، ولولاه لما شعرت باطمئنان فى طريق الليل وانا غريب الديار .

كان الرجل كريما ، كعهدى بالجزائريين ، فانزل اصحابه او أهله ، ثم سألنى عن وجهتى فاخبرته باسم الفندق ، وقادنى اليه خلال معارج المدينة ، وكأنها سكك أبو زيد .

***

قسنطينة عاصمة شرقى الجزائر ، موقعها الطبيعى حصين بحكم احتضان نهر (وادى) الرمل هضبة الموقع .

كانت تسمى « كيرتا » او سيرتا فى القديم ، تأثرت بحضارة قرطاجة ، وكانت عاصمة « نوميديا » حتى تغلب الرومان على أميرها جوجورتا ، ثم خضعت لبيزنطة . اعاد الامبراطور بناءها وسميت باسمه « قسطنطينة » ، ولكن اهلها ينطقونها « قسنطينة » بسكون القاف تلصق بها السين المفتوحة .

وفى العصر الاسلامى تنازعتها الامارات الاسلامية ، والخلفاء الفاطميون، فبنو زيرى ، فالموحدون ، وانتهت الى حكم الحفصيين فى افريقية (أى تونس) . وفى العصر العثمانى كان يحكمها باى ، نائبا عن داى الجزائر . حاصرها الجيش الفرنسى مرتين ، قبل ان يقتحمها امام مقاومة عنيفة جدا يقودها احمد باى ، وبرغم سقوطها

عام ١٨٣٧ ، فقد واصل احمد باى جهاده على راس القبائل فى جبال الاوراس ، وصمدوا حتى سنة ١٨٤٨ .
وقصر احمد باى هذا من أجمل قصور المغرب ، وبالمدينة الجامع الكبير ، من عصر الحفصيين ، وجامع سيدى الكتانى ، أو مسجد صلاح باى ، وسيدى الاخضر كلاهما من العصر العثمانى .

وبالمدينة اعمال انشائية فوق اغوار وادى الرمل : كوبرى سيدى راشد ، ثم الكوبرى المعلق الهائل المسمى بسيدى م ، سيد ، طوله ١٦٨ مترا معلق على ارتفاع ١٧٥ مترا ، أنشىء عام ١٩١٢ .

ولاحظت ان خمار المرأة وازارها فى قسنطين وربوعها ـ على خلاف المناطق الاخرى ـ تتميزان باللون الاسود .

***

لن نفهم آثار تلمسان ، ولا يمكن القاء بعض الضوء على بلاد الجزائر الا ان نلم بتاريخ المغربين : الاوسط ، والادنى ، اتماما لما بدأناه من تاريخ المغرب الاقصى .

والآثار الاسلامية الهامة بالجزائر نجدها فى طرفى البلاد الشرقى بقسنطينة وصقعها ، والغربى بتلمسان .

وفضلت أن يجىء هنا مكان هـذا الالمام ، وأنا على وشك الانتقال الى البلاد التونسية ، والحديث عن تاريخ الجزائر لايوضحه الا اتصاله بتاريخ المغرب الاقصى من الغرب ، وبتاريخ افريقية (تونس) من الشرق ، ثم ببعض تاريخ البحرية العثمانية وكان بطلها خير الدين بارباروسا ، فهو الذى اتخذ من جونة الجزائر عرينـا لاسطول المغامرين المسلمين ضد حركة التجارة المسيحية فى البحر الابيض ، وهو الذى قدم المغرب الاوسط ، والمغرب الادنى هدية لآل عثمان فى استامبول .

خلفية تاريخية لابد منها

« ... ثم كانت ولاية مروان بن الحكم ثم ولي عبد الملك بن مروان ، فاستقام له الناس . واستعمل اخاه عبد العزيز على مصر ، فولى افريقية زهير بن قيس البلوى .. وولي بعده حسان بن النعمان الغساني فغزا ملكة البربر « الكاهنة » فهزمته . فاتى قصورا في حيز برقة ، وعاد الى غزو « الكاهنة » فقتلها وسبى سبيا من البربر ، وبعث به الى عبد العزيز ، فكان ابو محجز الشاعر يقول : لقد حضرنا عند عبد العزيز سبيا من البربر ما رايت وجوها أحسن من وجوههم . »

« فتوح البلدان للامام ابي الحسن البلاذري »

تملكت « الكاهنة » ، من قبيلة الجراوة ، على البربر ، ووصفت بالداهية ولا يعرف لها اسم بعينه ، طارت شهرتها ما بين افريقية وموريتانيا ، هبطت جبال الاوراس لنزال عدوها حسان بن النعمان، وكانت ساعة متأخرة من النهار فلم تقبل على المعركة ، وقضت الليلة فوق سرجها. وفى الصباح وقف فرسان البربر فى نصف دائرة تتقدمهم صفوف الهجانة ، وبين اقدام الجمال رماة النبال ، وخلف الجيش احتشدت النساء ، وعتاد الحرب .

جمحت جياد حسان من رائحة الجمال، وانهزم القائد العربى وطورد مرتدا حتى قابس ، ولحصن فى موضع يعرف بقصور حسان . ودارت رحى المعركة فوقع عدد من الاسرى بين يدى « الكاهنة » واذا بها تعيدهم الى صفوف اعدائها ، الا فتى مليحا يدعى خالد بن يزيد من بطون قيس ، راق فى عينى ملكة البربر فتفننت بملاحته وسمرته وقالت له سأرضعك لتصبح ابنا للكاهنة وأخا لاولادى ، وأجريت مراسم التبنى تبعا لتقاليد البربر (راجع تبنى أمنا الغولة فى حواديتنا) .

كانت الكاهنة تستقبل صباح معركتها الاخيرة بفال سوء ، قائلة : « كلما واجهت المشرق رف منى الطرف نذيرا ، لقد جاء العرب لامتلاك بلادنا » ، وامرت بأبنائها وبالفتى القيسى ان يسلموا الى حسان بن النعمان .

واحتدم القتال بين الجيشين عنيفا داميا ، عقد النصر فيه للمسلمين ولم تطلب الكاهنة النجاة قائلة : انى اعرف كيف أموت ملكة ، ووقعت فى الاسر ، فقطع راسها وألقى بها فى بئر عرف ببئر الكاهنة .

تلك صورة ، أو اسطورة من أساطير البربر حول الفتوحات الاسلامية الاولى بالشمال الافريقى ، ولم يكن يعرف فى ذلك الزمان بأقسامه التى أقامتها الدول الاسلامية فيما بعد ، بل كان على حاله منذ فجر التاريخ . أقام فيه الفينيقيون بعض الثغور ، وتبعهم القرطاجيون فالرومان فالوندال فالبيزنطيون ، واطلق اليونان على « افريقية » اسم « نوميديا » بمعنى بلاد « القوم الرحل » ، وهم جنس لم تتحقق أصوله الاثنوغرافية على وجه الدقة ، والغالب انه جنس ليبى يصفه علم الاجناس بانه الجنس « الميديترانى » الجنوبي

فى مواجهة الجنس الميدتيرانى الشمالى .. وكلاهما يمثلان السكان القدامى حول حوض البحر المتوسط .
قامت فى العصور الوسطى ثلاث دول بالمغرب لكل منها حدود طبيعية :

المغرب الاقصى : من شواطىء المحيط الاطلسى حتى وادى ملويا ، وحاضرته فاس .
المغرب الاوسط : ويشتمل على ارض وهران ، وجونة الجزائر ، وعاصمته تلمسان .

المغرب الادنى : وهو « افريقية » التاريخ الاسلامى (ونوميديا العالم القديم) ويضم ارض قسنطينة وتونس وبعض ليبيا ، وعاصمته القيروان .

قام بموقع مدينة الجزائر فى العصر الرومانى بلد اسمه « اكوزيوم » وفى القرن العاشر (٩٣٥ م) ، انشأ الامير بلكين (بولجين) بن زيرى فى ذلك الموضع مدينة اطلق عليها اسم « الجزائر » نسبة الى مجموعة جزر صغيرة فى مداخل الجونة الكبيرة .

وقد دخلت هذه المدينة فى حكم بنى حماد ، فالموحدين ، فعبد الواد ، فدولة بنى زيادة التى تحكم فى تلمسان .
اما بلاد الجزائر كما تعرف اليوم فلم تحدد تخومها الا عام ١٦١٤ م .
فلنطرق الآن تاريخ المغرب الاوسط والادنى بدءا من دولة بني عبد الواد فى تلمسان (القرون ١٣ الى ١٦ م) ودولة الحفصيين فى افريقية .

بنو عبد الواد من قبيلة زناتة ، استقروا فيها بين وادى ملويا ، غربا والزاب والاوراس شرقا ، فى مطالع القرن الثالث عشر .

شارك بنو عبد الواد قبيلة المغاورة (بطن من زناته) في محاربة العرب من بنى هلال وبنى سليم ، وهى القبائل العربية المقيمة بمصر ، والتى أطلقها الفاطميون على المغرب لمحاربة فرقة الاباضية فى الزاب ، ولتخريب المغرب .

وأقام الموحدون سيطرتهم على بني عبد الواد واستعملوهم لمقاومة بنى مرين ، الاسرة الصاعدة التى تهدد دولة الموحدين فى المغرب الاقصى ، وكوفىء بنو عبد الواد بأن اقطعوا المغرب الاوسط كما ذكرنا .

ويغموراسن بن زيان هو مؤسس الاسرة الحاكمة فى تلمسان ، كان أميا لاينطق بغير لسانه البربرى ، ولا شأن للأمية وما اليها أن يكون الرجل عبقرية حربية ، امضى سنوات حكمه فى محاربة العرب الهلالية ، وامتد جهاده الى الإشتباك مع الدولة القوية شرقيه (بنىحفص فى افريقية) ، والموحدين وبنى مرين فى المغرب الاقصى .

هاجمه ابو زكريا الحفصى ، واضطره الى الاحتماء بالجبال ، ولكنه عاد الى عاصمته تلمسان بعد عودة ابى زكريا الى افريقية ، باتفاق على أن يدفع الجزية الى الحفصى .

كان المرينيون يركزون حروبهم على قهر الموحدين وازالة ملكهم ، فهم بحاجة الى معونة يغمراسن ، الحريص على امارته بتلمسان ، فى مواجهة بنى مرين فى فاس .

لم يدم السلام طويلا بين بنى عبد الواد وبنى مرين، وقامت الحرب بينهما سجالا على طريق تازة ، الممر الخطير مابين فاس والمغرب الاوسط، وهو الممر الفاصل بين جبال الريف شمالا ، وجبال الاطلس جنوبا .

ترك يغمراسن بن زيان امارة تلمسان قوية الجانب ،

تتمتع برخاء اقتصادى مرده انها ملتقى تجارة البحر الابيض المتوسط ، كما اشتهرت تلمسان بمدارسها واقبال أهل العلم والادب عليها ، وخاصة من الاندلس، وكان على راسهم أبو بكر محمد بن الخطيب ، الذى اقامه يغمراس على رسائله .

بيد ان هذه الدولة الصغيرة المحصورة بين الحفصيين فى افريقية والمرينيين فى المغرب الاقصى لا تنفك فى صراع للحفاظ على استقلالها ، حتى انتهت دولة عبد الواد عام ١٥٥٤ م .

فمن هم الحفصيون ، وما اصلهم ؟

فى مطالع القرن الثالث عشر اتم الموحدون الاستيلاء على ملك المرابطين فى المغرب كله ، ما عدا الجنوب التونسى حيث صمد المرابط ابن غانية الى ان تغلب عليه سلطان الموحدين الناصر بن المنصور ، فعين أبا محمد ابن ابى حفص حاكما على الاقليم .

وحينما حاقت الهزيمة بالموحدين فى الاندلس ، مما اضعف شوكتهم ، استقل ابناء حفص بامورهم فى افريقية ، ويعزو ابن خلدون ذلك الى ان ابا زكريا الحفصى تخلص من سيطرة الموحدين عندما بلغه انهم سمحوا للمصلين باستعمال لغة البربر فى أداء فريضتهم، وغير ذلك مما اعتبره الحفصى مخالفة خطيرة ، بل مروقا

امتد حكم بني حفص حتى اقليم بجايا بعد زوال ملك الموحدين فالجزائر ، ثم احتلوا تلمسان وفرضوا الجزية على يغموراسن (كما سبق ذكره) بل بسطوا حكمهم على سبته وطنجة ، واعترف بهم سكان بلنسية وشرقى الاندلس ، فكان ابو زكريا الحفصى أقوى حكام الشمال الافريقى ، وقد راسل الملوك والامراء فى اوربا ، وعقد ميثاقا تجاريا مع امبراطور الجرمان فريدريك الثاني ،

آل هوهنشتاوفن ، بطل الحملة الصليبية السادسة ، الذى عقد معاهدة صلح مع الملك الكامل الايوبى ، سلطان مصر ، دامت نحو احد عشر عاما .

توفى ابو زكريا فى عنابة ، وتفككت دولة الحفصيين فى القرن الخامس عشر ،خرجت عنها قسنطينة وبجايا ، ولم تبق لها فى القرن السادس عشر غير تونس ، وكان العرب من قبائل القوب وبنى سليم قد استولوا على بقية البلاد ، مما اضطر معه الحفصيون الى الاستنجاد بالاتراك العثمانيين الحاكمين فى الجزائر ، وكان ذلك ايذانا بدخول تونس فى حكم آل عثمان .

وقبل أن نفصل استيلاء العثمانيين على الجزائر يجدر بنا أن نشير الى حملة الصليبى لويس التاسع على تونس ، ونزول جيشه بضاحيتها « قرطاجة » ، فقد حدثت ودولة بني حفص فى عزها ، وعاصمتهم تونس قد احتلت مكانة القيروان فى العلوم والآداب والتجارة والصناعة .

ومن الطريف ان يرجع القارىء الى الجزء الثانى من تاريخ ابن خلدون لمراجعة هذه الحادثة التي علق عليها مؤرخ فرنسي مسيحى قائلا : كانت حملة القديس لويس تشهد بجهالة عجيبة لشئون افريقية ، فمع ان الجيش الصليبى المتحصن في قرطاجة لم يتمكن من دخول معركة واحدة مع المسلمين فقد زعم املاء ارادته عليهم حين اشترط لعقد الصلح بينه وبين الحفصيين ... أن يتنصر خليفتهم المسلم .

وعلق عبد الرحمن بن خلدون على هذا الشرط الرائع ا بأن يد الله نزلت على راس « الريدفرانس » لويس بن لويس ، فنفق بالطاعون فى الموضع الذى

انزل به جيشه ، وأجلى الحفصى هـذا الجيش مقابل دنانير معدودة .

لقد تغير حال المغرب الاوسط وافريقيـة فىخلال القرن السادس عشر : احتل الاسبان شواطىء وهران ، فى الوقت الذى كانت شمس بنى عبـد الواد تنحدر الى الغروب ، والحفصيون يعانون سكرات الموت فى افريقية

وأهم حـادث فى ذلك القرن كان ظهور الاتراك على الضفاف الجنوبية للبحر المتوسط ، واستيلاؤهم على مصر وبلاد المغرب الادنى والاوسط .

وكان للعثمانيين ـ دولة الخلافة ـ فضل لا ينكر على بلاد المغرب الاوسط ، وهو مدافعة الاسبان الطامعين فى احتلال الثغور الاسلامية .

واذا كان سقوط مصر المملوكية بين براثن العثمانيين غزوا وقهرا واذلالا ، فقد كان اسـتيلاؤهم على تونس والجزائر هدية لطيفة من قرصان مغامر ، تاجر باسلابه وغنائمه مبادلة مع الحكام ، ثم انتهى بضم أسطوله الى الباب العالى ، وكوفىء بأن عينه خاقان البحرين أمير امراء البحر برتبة قبطان (قبودان) باشا .

وهذا المغامر تركى، أو البانى ، ولد بجزيرة لسبوس لأب فخرانى رزق بأربعة أبناء ، عملوا كلهم على مراكب القرصنة ، وهم اليـاس ، واسحق ، وبابا عروج ، وخيرالدين .

أشدهم مغامرة كان بابا عروج ، وقع فى أسر فرسان الصليب أصحاب جزيرة رودس ، وحين أفلت من الاسر لجأ الى شاطىء افريقية ، وجعل من جزيرة « جربة » (فى مواجهـة قابس بالجنوب التونسى) مركز قيـادة لقرصانه ، واغرى الامير الحفصى على اشراكه فى السبايا والغنائم .

لحق به أخوه خير الدين ، وذاعت شهرة ولدى صانع الجرار ، واشاعا الفزع على طول البحر المتوسط وعرضه من جراء المغامرات الجريئة ، وقطعهما الطريق على السفن المسيحية .

واستنجد « شيخ » الجزائر بالشقيقين ليخلصاه من ربقة الاسبان ، وعندما وصل المغامران الى الجزائر وجدا ان الاسبان يحتلون واحدة من الجزر القائمة بمدخل المرفأ الكبير ، ورأى بابا عروج ، بما طبع عليه من انتهاز الفرص والغدر ، أن يتخلص من الشيخ بقتله وأعلن نفسه ملكا على النواحي ومد سيطرته على الشاطىء حتى دخل تلمسان فحوصر فيها ، ثم هرب منها غربا الى وجدة ، حيث ادرك وقتل جزاء وفاقا على غدره .

تولى خير الدين قيادة أسطول القرصنة ودخل الجزائر فاتحا ، وبدأ منها الشهرة التى طبقت آفاق «الفرنجة» تحت اسم ذى اللحية الحمراء (بارباروسا) .

وبضم اسطوله الى اسطنبول ارتقى الى قيادة البحرية العثمانية كما سبقت الاشارة اليه ، وتقدم بأسطوله الى تونس فاحتلها ، وأنهى حكم الحفصيين (١٥٣٤ م)

وعرقلة ملاحة الدول المسيحية فى البحر المتوسط لم يقف أمامها شارلكان يهز رأسه ، فما أن استقر حكمه الامبراطورى باوربا حتى استدار نحو الجنوب فى حملة فاشلة على الجزائر ، فاتجه بأسطوله الكبير الى قرطاجة ونجح فى انزال عشرين ألفا من عسكره فى المكان الذى احتله لويس التاسع قبل ثلاثمائة عام ، ومن قرطاجة اقتحم « حلق الوادى » لاحتلال تونس ، وتلقى معونة متوقعة من طابور خامس يتالف من الاسرى المسيحيين بداخل المدينة .

عاد خيرالدين الى اسطنبول فى الوقت الذى استرجع الحفصى عرشه تحت الحماية الاسبانية ، مع دفع الجزية للامبراطور ، وقبول جيش يحتل « حلق الوادى » وبنزرت والمهدية .

ولم يرض شعب البربر بسلطانهم المتخاذل الذى باعهم من أجل « الكرسى » وعاد العثمانيون فحرروا المهدية وبجايا وتلمسان ، واستعادوا تونس عام ١٥٥٩م بقيادة قبطان باشا أولج على .

ولا تعنينا فى كثير أو قليل تفاصيل الحكم العثمانى فى بلاد الجزائر والايالة التونسية ، ولا كيف انتهى الى « باى » فى تونس و « داى » فى الجزائر ، وجدير بنا أن ننسى حكم الفرنسيين فى الجزائر ، وحمايتهم لتونس ومراكش ، فتلك صفحات سود من كتاب القرون الماضية ، وبخاصة القرن التاسع عشر ..

تونس ..
بين رحلتي الشباب والشيخوخة

من كل أقطار رحلتي الاخيرة الى الشمال الافريقي، فزت بأكبر نصيب في القطر التونسي ، أقمت به شهرا قبل ان ابلغ الثلاثين ، وعدت اليه وقد اجتزت السبعين

سعدت بالاقامة في تونس مرتين ، ومصدر سعادتي واحد : الاحساس بقرب الوطن .. في المرة الاولى طالت غربتي عن مصر الى خمس سنوات ، فكان في سفرى من باريس الى تونس استرواح لمصر ، واستشعار بنسيمها .. وفي المرة الثانية كنت اقترب من نهاية عبوري الطويل ، وقد غادرت باريس الى القاهرة ، عن طريق اسبانيا والشمال الافريقي ، ولم يبق بيني وبين الوطن سوى ليبيا . ولاحظ انك كلما اتجهت مشرقا من المغرب الاقصى ، قربتك اللغة التي تسمع من لهجة المصريين ، لهبوط نسبة اختلاط لغة البربر بالعربية .. واذا كنت في سائر بلاد المغرب تسلك طريقك مع المتعلمين بالعربية الفصحى ، أو بالفرنسية ، فان صعوبة ـ وربما استحالة ـ فهم الكلام الدارج في المغرب الاقصى ، تخف شيئا فشيئا ، كلما انحدرت من اعالي الجنوب نحو الشاطىء ، او كلما اتجهت شرقا . فاذا بلغت تونس ، سهل عليك التخاطب بلهجتك المصرية ، وما اسرع ما يتعرفون عليك قائلين : «مصراوى» .. وقد

تستطيع ، الى حد ما ، فهم التونسية الدارجة على الاقل فى الحضر . ثم انك تحس فى تونس بجو وداعة ، اشبه بوداعة المصريين ، بل وباستعداد لطرقعة النكتة عند التونسيين ، وبقدرة على تذوق الفكاهة .. وظهر ذلك عندما ذهبت الى «شفخانة» السيارات ، استرجع العربة التى حملها البوليس بالرافعة (الونش) الى هناك ، لوقوفها فى مكان مسموح به فى وقت الازدحام ؛ محظور بعد ساعة معينة يجهلها السائح العابر طبعا .. تبادلت القفش مع رئيس محبس السيارات المخالفة ، وكان الابتسام بين الطرفين بديلا عن دفع الغرامة ..

كنت فى اقامتى الاولى عام ١٩٣٠ ، أعيش على مقربة من المعهد « الاقيانوغرافى » فى سلامبو ، مع فرنسيين فى الفندق وفرنسيين فى العمل الذى اقضى به سحابه اليوم ، فاذا انتهيت من عملى مبكرا ، خرجت الى آثار قرطاجة البونيقية — وهى قليلة ، بعد أن خربها سيبون الافريقى ، ومن جاء بعد الرومان من الغزاة والفاتحين — والآثار الرومانية ، وهى كثيرة لا فى قرطاجة وحدها بل فى غير قليل من الاصقاع التونسية ، وقد أزور متحف « الآباء البيض » ، وهم اعضاء رهبنة اسسها الكردينال لافيجرى ، المبشر المشهور ، وألبس رهبانها مسوحا ابيض ، مستوحيا جلابة المغاربة ، وانعلهم البلغة ، كنت ابادل بعضهم الحديث فى لقائى معهم بالمتحف او وسط الآثار .

ويوم الاحد كنت اقضى النهار بطوله ، وبعض الليل ، فى تونس المدينة العتيقة ، اتناول طعامى فى مطاعمها البلدية ، وأستمع الى الفونوغراف « أبو نفير نحاس اصفر » ، وسهرت ذات ليلة فى مسرح البلدية بالمدينة الاوربية (خارج السور) فاعادتنى السهرة الى مطالع

مراهقتى ، كانت الرواية « ثارات العرب » ، وهى ترجمة وتعريب لرواية فكتور هوجو « البورجراف » بقلم نجيب حداد ، وكان التمثيل تهويشا وتلويحا بالايدى والأذرع ، وجئيرا خطابيا ، والجمهور تفوح منه روائح العنبر ، والطرابيش الحمراء المطربقة (وهى الشاشية) تتدلى منها أزرار زرقاء وسوداء تبلغ الاكتاف . وعندما رأيت فى تجوالى عددا من حمامات السوق ، تاقت نفسى الى دخول واحد منها ، ولم اك دخلت حمام السوق سوى مرة واحدة فى الطفولة ، اتماما لتقاليد الختان .

والتقيت فى الحمام بالشباب التونسى من طلاب جامع الزيتونة ، فتحدثوا الى بما يتوقعون من اضطرابات بمناسبة افتتاح « المؤتمر الافخارستى » ، فنزلت أشاهد موكب القاصد الرسولى يستقبله المقيم العام الفرنسى عند حلق الوادى ، ويركب الى يساره ، نافشا منفوخا كالديك الرومى .

ولاحظت ان الامن وكلت به فرقة من السنغاليين السود ، سيطرت على المدينة تماما ، وبلغنى انمظاهرات سارت تهتف داخل المدينة العتيقة ، وانتهت بسلام .

واخبرنى الكتبى الذى كنت اجلس بمكتبته أمام جامع الزيتونة ، فى دعابة تونسية ، ان قطة حاولت عبورطريق الموكب، فمنعها الحارس السنغالى . بكنافة بندقيته (ونسيت الاصطلاح التونسى تعبيرا عن كعب البندقية) .

اقتنيت من مكتبة صاحبى دواوين أشعار تونسية ، والطبعة الاولى للجزء الاول من « الايام » لطه حسين ، وطبعة حديثة لقصة محمد حسين هيكل « زينب » ، وكتابا أعتز به — على الرغم من اصابته الشديدة

بقارضة الورق ـ هو « نخبة الزائر فى مآثر الامير عبد القادر ، واخبار الجزائر » تأليف ابنه محمد عبد القادر الحسنى (مطبعة غرزوزى وجاويش ، الاسكندرية ١٩٠٣) .

ولاحظت فى مكتبة صاحبى التونسى ان مجلاتنا المصورة (١٩٣٠) كانت رائجة ، ربما لمادتها ، وقطعا لما بها من صور لمتاع الحس والبصر ، وكان الكتبى يثير رغبة الزبائن بالاشارة الى ما بها من «صور نساء» : قال هذا لجزائرى قحف مستغلق اللغة ، حاولت أن اتفهم منه شيئا عن بلاده فتلعثم « عيضة » ، ولم يشجعنى الكتبى على المضى فى الحديث ، ورثى لحال اولئك القلابة الذين أضاعهم الاستعمار .

سافرت بعد انتهاء عملى الى القيروان فقضيت فيها يومين بليلة ، زرت أهم مساجدها على مهل ، وطالعت بعض ما تيسر عن الفن المغربى ، ودعانى تاجر سجاد على العشاء بمنزله مع بعض اصحابه ، وسهرنا فى مقهى به تخت وغناء .. ورجل يرقص فى لبسة الغوانى ، ذكرنى بفؤاد الـ . . . رأيته فى صفرى يقدم فاصلا من رقص البطن بالسيرك الوطنى فى مولد « أم العواجز » .

وطبيعى ان أسعد بزيارتى الثانية لا لمجرد استقلال البلد الشقيق فحسب ، بل لروعة ما شاهدت من تجديد ، وما أحسست به من روح طموح : حارب الاستعمار ولم يتنكر لحضارة الغرب ، مثلما كنا بمصر ايام ثورة عام ١٩١٩ وما بعدها ، حيثما كنا نقاوم المستعمر البريطانى ، دون أن نتخذ من ذلك ذريعة لكره الحضارة الاوربية ، كنا نشعر بحاجة مزدوجة اليها : مؤازرة الدول الغربية لنا فى قضيتنا العادلة ، وضرورة استئلافنا لحضارتها ، فهى سلاحنا الامضى فى محاربة

المستعمر ، وهى درعنا لنواكب الحضارة المعاصرة فى سلام .

تونس ، والمغرب كله ، اقرب منا الى الحضارة الاوربية ، ولا أعنى القرب الجغرافى وحده ، وانما الاتصال المعنوى كذلك ، نعم ان الطائرات طوعت السفر الى اوربا وغيرها ، ولكن ما لايدرك لاول وهلة هو ان سفر خمس ساعات فى الطائرة من ناحية التكاليف يعادل سفر ثلاثة او اربعة ايام بالبحر والقطار ، وما بين تونس وباريس ساعتان بالطائرة ، وقريب من هذا ما بين الجزائر والمغرب الاقصى والبر الاوربى ، والطريق ذو اتجاهين ، فما أيسر على طلبة العلم فى المغرب من بلوغ هدفهم فى دراسة أصول الحضارة ، وعلى السائح الاوربى ، وحتى الامريكى الذى يقضى اجازته فى اوربا ، من ان يخطف الى بلاد المغرب .

ولكى نفهم ما حدث من تطور بعيد المدى فى الاستعداد السياحى ببلاد المغرب ، نذكر ما حدث عقب الحرب الماضية . اجتمع المهتمون بتيسير السياحة واستغلال مواردها ، واتجهوا الى الشمال الافريقى كمرقق سياحى هام ، ووضعوا خططهم الاستثمارية وشيكا ، وقد لاقوا من حكومات المغرب استعدادا وقبولا ، وشاركت هذه الحكومات مشاركة فعالة فى انشاء واعداد كل ما من شانه خلق صناعة سياحية نافقة . ويجب ان نشهد لمن حملوا لواء هذا التطور من رجال المغرب بالكفاءة الممتازة ، وسرعة فى الانجاز ، وشجاعة فى مواجهة الحضارة بصدر رحب وعقل متفتح

وتونس ، بالنظر لموقعها المتوسط فوق ذلك الراس الممتد فى اتجاه اوربا ، كانت طوال تاريخها مركزا هاما

للتجارة والمبادلات الاخرى بين الشرق والغرب والشمال والجنوب .

الجديد على بتونس ، وقد التقيت فيها باشقاء اعزاء للمرة الثانية ، هو انني رايتهم ينعمون بالحرية والسلام ، ويخطون خطى المطمئن الواثق نحو التطور الحضارى الى أقصاه ، مسلحين بمضاء العزيمة ، وتخفف من اثقال الماضى ، دون أن يضعف ذلك من حفاظهم على تراثهم الاسلامى ، وهو عظيم فى ثرائه واصالته ، وآثارهم البونيقية والرومانية . انظر مايقوله تقرير قدم الى المؤتمر الثالث للمدن العربية عام ١٩٧١ ، بعنوان « تونس ، المدينة العتيقة » :

« ان عملية التجديد العمرانى التى يجب القيام بها ، ينبغى أن تكون أولا عملية احياء التراث ، وثانيا عملية تكسب المنطقة وظيفة جديدة ، والمهم هو اعادة بناء حى ، يكون مثاليا بمساحته وموقعه ونوع نشاطه الاقتصادى والثقافى للمدينة العتيقة فى المستقبل ، وهو مثالى بمعنى ان يؤسس بكيفية تساعدنا على ايجاد الحلول المعاصرة التى تتصل بموارد ماضية ، وبتداخل محكم للمساكن والتجهيزات العمومية والخصوصية فى الميدان الاقتصادى والمجال الثقافى » .

وفى موضع آخر من التقرير : « ونحن نعتبر ان التغيير أو الاتلاف بجهالة ، جريمة ضد التراث الثقافى القومى ، ونطالب السلطات النظر فى اتخاذ الاجراءات اللازمة ، كما نعتبر ان الدفاع عن التراث الثقافى أمر بالغ الاهمية » .

وبعده : « ويعمل الآن مختلف الاختصاصيين بارتباط وثيق مع اعضاء صيانة المدينة ، وتعاون خاص بين هذه الجمعية والمعهد القومى للآثار والفنون .

« هذا ، ومعالجة مشروع تونس ـ قرطاج بالتعاون مع اليونسكو ، دليل على العناية العالمية التى يختص بها تراث المعالم التاريخية بتونس ، وتلك العناية تزداد اهمية بوجود حضـــارة من أقدم الحضـــارات بالبحر الابيض المتوسط فى قرطاج على بعد بضع كيلومترات من مدينة تونس البلد الاسلامى التقليدى المحافظ على سلامته الى يومنا هذا » .

والتونسيون لم يتمكن الاستعمار الاوربى من العبث بامتلاكهم للغتهم الشريفة ، كما لم يعبث عابث بعـــد استقلالهم بتمكنهم من اللغة الفرنســية تمكنا جـديرا بالاعجاب .

لم البث طويلا فىالقطر التونسى بعد زيارة العاصمة ؛ بدات منها طريق العودة الى الوطن مجتازا من الشمال الى الجنوب ثم الى الشرق حتى الحـدود الليبيــة : يومين فى القيروان ويوما فى سوسة ويوما فى صفاقس، ويومين فى قابس .

كم شعرت بانشراح وانا أشــاهد اعمال الاصـــلاح والترميم واعادة الرونق الى جامعين من اهم الجوامع فى العالم الاسلامى : الزيتونة بتونس ، وسيدى عقبة بالقيروان .

وكلام معـــاد أن ازجى الثنـــاء العــاطر على الطرق السياحية بكافة بلاد المغرب ، هذه شرايين الحياة فى البلد الناهض . ذكرنى ما شـــهدت من تقدم سيـــاحى بتلك البلاد الشقيقة ما سمعت بمدينة اكس ـ ليه ـ بان عام ١٩٤٦ (أى بعد نحو عامين من تحرير فرنسا) ، وقد أبديت اعجابى بالتجديد الفخم فى أجمل مدن المياه الفرنسية .

اجتمع الخبراء ووضعوا خطة اعادة البلاد الى رونقها

ونشاطها الصناعي والتجاري (لم تكن فرنسا بحاجة الى تخطيط ثقافي ، فالثقافة للشعب الفرنسي هي الماء والهواء في تخطيط الدكتور طه حسين للتعليم في مصر) .
وجاءت السياحة على رأس « الصناعات » في كشف الاولويات .

أبديت دهشتي من كلمة « الصناعة » (اندوستري) وصفا للسياحة ، نعم ان الكلمة الفرنسية تتسع لمعنى المهارة ، والمهنة ، والنشاط ، وتحويل المواد الاولية الى انتاج الثروة ، واذا قلنا الصناعات الزراعية ، واليدوية ، فلماذا لا نقول الصناعة الفندقية ، و « الصناعة السياحية ؟ »

واضاف محدثي الفرنسي ، وهو مدير اكبر فنادق اكس : عندما تقف البلاد على اقدامها سياحيا تنفق تجارتها ، وتزدهر صناعاتها وكافة مرافقها ، من المتحف الى الملهى ، ومن المواصلات البحرية والهوائية الى المواصلات البرية ، ومن الفنادق والبنسيونات الى مدن المياه المعدنية ، والاماكن الاثرية ، ومن دور الكتب الى المكتبات واكشاك الصحف . . . الخ .

ويروق لي ان اردد على مسمع اهل بلادي أن تطوير بلاد المغرب ، وبخاصة : تونس والمغرب الاقصى، وضعها في مقدمة البلاد السياحية في العالم .

وان تأخر بلادي في المرفق السياحي يساعد عليه المظهر الزري للكثير من طرقاتها وشوارعها ، ولغير قليل من معالمها السياحية ، وخاصة الآثار الاسلامية والقبطية ، التي يشتملها اطار من القبح والقذارة والاهمال ، الى درجة تجعل الوصول الى بعضها حماما من التراب ، وسط كيمان القمامة تنشر عبق العفونة ، ولقد سمعت بأن بين ظهرانينا من يصد السائح عن زيارة

مقابر المماليك بالعباسية (مقابر الخلفاء فى الاصطلاح السياحى) ، فمن ذا الذى يعبر الى تحفة قايتباى الرائعة ، او مقبرة اينال ، ومدرسة برقوق ، دون ان يدفع الثمن تقززا وقرفا من الطريق اليها .

هذا كلام قاس لا تستحقه والله بلاد الخير والعطاء والسماحة ، ام الحضارات ، منشئة اغلى وانمن الآثار القديمة : فرعونية وقبطية واسلامية .

والعجيب أن تفكيرنا السياحى السقيم عندما حاول التطور عقب الحرب العالمية الثانية بدا من تخيل مريض ، الا وهو : ان السائح بحاجة الى اللهو والحظ والدعارة بعد يوم مرهق من ارتياد الاماكن الاثرية (كمن يخرج بعد الاستماع الى أوبرا « دون جوفانى » لموزار ، لينهى سهرته فى ماخور) ، وان الواجب اعداد الملاهى الليلية ، بنجومها راقصات البطن والارداف .

وكان من اثر هذا التفكير المفلوك ، مغلوت العيار ، أن طريق الحجيج الفنى الى الاهرام وابو الهول ومعابد ومقابر سقارة ، فى طريقه حتما الى ان يعرف « ببرودوى » قاهرة المعز والدولة المملوكية العظمى .

القيروان ..
أم المغرب الرءوم

في منتصف مارس عام ١٩٣٢ ، اقام القطر التونسي احتفالا بمرور ثلاثة عشر قرنا على تأسيس مدينة القيروان .

وفي احتفالات مولد النبي صلى الله عليه وسلم عام (١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٨ م) ارتقى الرئيس الحبيب بورقيبة المنبر الخشبي العتيق ، القائم الى يمين المحراب بجامع سيدي عقبة منذ اسرة بني الاغلب ، والقى خطابا ضافيا ، جمع فيه بين القيروان والمغرب والعروبة ورسالة الاسلام وتحرير الاوطان .

وجاءت في الخطاب هذه الفقرة : « القيروان مدينة ولدت فيها روح المغرب العربي الكبير ، فحلمت بالجزائر وتلمسان وفاس ، ثم حملت بها ، ثم تمخضت عنها . . . القيروان أم رءوم للمغرب العربي كله » .

اتجه عمرو بن العاص ، بعد الفراغ من فتح مصر ، الى برقة ففتحها في العام الثاني والعشرين من الهجرة ، وكان عقبة بن نافع الفهري واحدا من قواد جيش عمرو ، فوجهه لفتح زويلة ، واقامه حاكما عليها .

وبعد استقرار الحكم الاموي ، وجه عمرو ـ في ولايته الاخيرة لمصر ـ معاوية بن حديج لفتح افريقية (اي القطر التونسي مع بعض ارض طرابلس شرقا ،

وقسنطينة غربا) ، فقام ابن حديج بثلاث غزوات ، قاد الثالثة منها عقبة بن نافع (٥٠ هـ ـ ٦٧١ م) وكان العزم هذه المرة تثبيت حكم الخلافة الاسلامية فى افريقية ، وانشاء حاضرة للمسلمين بالمغرب .

كان جيش عقبة يتألف من نحو عشرة آلاف مقاتل، بينهم عدد كبير من البربر الذين اسلموا ، وعدد من مشاهير التابعين (روى ان كان فيهم ثمانية عشر رجلا من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم) ، اخترق الجيش فزان ، وفتح غدامس ، واتجه شمالا ، حتى بلغ موضعا وسطا بين الشاطىء وعلى مبعدة منه ليأمن غارات الروم من البحر ، وبين مرتفعات وصحارى الجنوب وقاية لجيشه من تجريدات البربر(غير المسلمين) اقام عقبة فيه اولى المدن الاسلامية بالمغرب ، بعد ما ركز رمحه فى ذلك الموضع وقال : هذا قيروانكم .

والقيروان فى معناها أيام الفتوح : بيت السلاح ، فيقول ابن عبد الحكم عن غزوة عبد الله بن سعد بن ابى سرح لافريقية : ورجع عبد الله الى مصر « ولم يول عليهم أحدا ، ولم يتخذ بها قيروانا » ..

أمر عقبة ببناء المسجد الجامع ، فدار للامارة ، وبنى الناس دورهم حول الجامع واستمرت حركة البناء والعمران فى نشاط كبير . . . « وشرع فى تنظيم الدواوين بالعاصمة الجديدة ، فرغم حب عقبة للفتوحات ولساحة الوغى ، فانه بقى ثلاث سنوات فى القيروان ، كرس فيها جهوده لبناء المدينة ، ليخرج متجها نحو شواطىء المحيط الاطلسى » .

الدكتور الحبيب الجنحانى : «القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الاسلامية فى المغرب العربى» . تونس ١٩٦٨ .

كانت حيـاتها الاولى صـعبة من جراء عداء البربر بزعامة كسيلة البرنسى شيخ قبيلة الاوربية من جبال اوراس ، وكسيلة هو الذى نصب كمينا لعقبـة فهزم جيش القائد العربى فى عودته من شواطىء البحر المحيط فى موضع قريب من واحة بسكره واستشهد عقبة ودفن حيث قتل (٦٢ هـ ـ ٦٨٢ م) .

استولى كسيلة على القيروان ، وارتد الجيش الاسلامى الى برقة ، ورابط فيها .

وتقوم حمـلة عربية جـديدة فى حكم عبـد الملك بن مروان ، يقودها زهير بن قيس البلوى ، تنتصر على البربر ، ويسقط زعيم البربر قتيلا ، ثم يستشهد زهير ببرقه فى طريق عودة الجيش المنتصر ، وكان لمقتله فى دمشق وقع شديد ، مثلما كان لاستشهاد عقبة بن نافع .

وولى عبد الملك بن مروان قيادة جيش عرمرم لحسان ابن النعمان الغسانى ، ربما كان اكبر جحفل وجهـه المشرق لفتوح المغرب ، وهو الجيش الذى قضى على داهية البربر المعروفة « بالـكاهنة » ، وكان نفوذها يمتد من طرابلس حتى طنجة .

واستتب الحكم الاموى لاول مرة فى افريقية ، حين اقتحم حسان مدينة « قرطاج » البيزنطية فهدمها ، ثم اسس بمحلة على مقربة منها تعرف « بترشيش » مدينة تونس .

أما القيروان ، فقد اتسع عمرانها ، وغدت حاضرة عظيمة للدول الاغالبة والفواطم والصنهاجة (بنى زيرى) وقد بلغ من سؤددها ان امتد نفوذها وحكمها الى جنوبى فرنسـا ، وبعض جزر البحر المتوسـط ، وحتى بعض مناطق افريقيا السوداء .

بلغت القيروان أوجهـا فى أسرة بنى الاغلب (القرن

التاسع الميلادى) ، وكان قيام هذه الاسرة نقطة تحول فى تاريخ المغرب ، إذ حقق استقلاله عن الخلافة فى المشرق ، والواقع ان هذه الخلافة ، بعد ولاية موسى ابن نصير ، وبعد فتح الاندلس ، لم يتعد دورها ايفاد الولاة ، وتقبل الهدايا والغنائم (ربما كان اهمها الجوارى الحسان) ، واستمرار رجال المغرب الرسميين لبس السواد ، صورة ولاء للعباسيين .

ثم لم يعد للمغرب حاجة الى الولاة ، بعد أن انتشر الاسلام وعم قبائل البربر ، وهم قوم أعزة ، لا يقبلون ضيم الولاة ، ولا عسف جيش عربى محتل .

ولد مؤسس دولة الاغالبة ابراهيم بن الاغلب بن سالم ابن عقال التميمى بالمشرق ، وقدم على المغرب صغيرا مع أسرته ، وتولى فيما بعد امارة الزاب ووصلت الى هارون الرشيد اخبار طيبة عن ولايته ، فما ان طلب ابراهيم ولاية افريقية ، حتى أجابه الرشيد وارسل اليه عهد الولاية عام (١٨٤ هـ ـ ٨٠٠ م) وابراهيم هو منشىء العباسية دارا للحكم على مبعدة غلوة من القيروان .

وابراهيم ، فيما وصفه ابن عذارى (البيان المغرب) كان فقيها اديبا شاعرا وخطيبا ، الى سلامة فى الرأى وبأس فى الحرب .

توالى حكم الاغالبة نيفا ومائة عام ، وكان ابراهيم احسنهم سيرة وارأفهم بالرعية ، نشبت الثورات فى عهده ، فكان يخمدها بالسياسة ، لا بالحسام .

كما كان زيادة الله الاول المعهم شخصية ، مع ميل الى العسف والعنف مما أثار عليه قواد الجيش وعماله فى بعض المناطق ، ولكنه صمد فى الحكم سبعة وعشرين عاما ، ودافع عن استقلال افريقية ، ورفض تدخل

المأمون عندما امره بالدعاء لعبد الله بن طاهر على منابره .

وزيادة الله هو الآمر بفتح صقلية ، وقد أسند قيادة الجيش الفاتح الى قاضى القيروان العلامة اسد بن الفرات ـ وقد بلغ السبعين من عمره ـ فكان القائد العالم بفن القيادة العسكرية ، كما كان العمدة فى علوم الدين .

ومن مآثر زيادة الله الاول ، تولية القضاء للامام سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي ، المولود بالقيروان ، ومؤلف المدونة التى كانت اول عهد المذهب المالكى بطريقة الاستقراء والاستيضاح ، أملاها دروسا بجامع عقبة ، ويرجع الى سحنون الفضل فى نشر مذهب الامام مالك بالمغرب ، وهو المذهب السائد الى اليوم هناك .

تمنع سحنون فى قبول منصب القضاء تحرجا من تدخل الامير ، ولكن زيادة الله تعهد له باطلاق يده على اهل بيته واسرته وحاشيته ، بله الرعية .

وكان الامير أبو ابراهيم احمد الاغلبى مولعا بالعمارة ، فزاد فى بناء جامع سيدى عقبة ، وأقام الحصون والرباطات فى الثغور وحصنها بالاسوار .

وقصارى القول ، كان عصر بنى الاغلب ، أزهى عصور افريقية وحاضرتها الكبرى ، وقد انشئت فيها جامعة تحمل اسم « بيت الحكمة » ، كما قامت العمارة البحرية التى يحسب حسابها وسط البحر الابيض ، واقيمت المواجل (الصهاريج) والخزانات واسوار العيون لنقل الماء (وهى « الحنايا » فى لغة المغرب) .

وانتهى حكم بنى الاغلب عند ظهور الشيعة وعجز زيادة الله الثالث ، آخر امرائهم ، عن صد هجوم جيشهم المؤلف من قبائل كتامة (البربرية) .

وصل ابو عبد الله الشيعى من المشرق ، زاعما الانتساب الي الامام على وفاطمة الزهراء ، وأقام بين ظهراني كتامة معلما للصبية ، وناشرا لمذهبه ، ثم أوفد جماعة من كتامة لدعوة المهدى أبى عبيد الى المغرب ، وقد وصل المهدى واستقبل بحفاوة ، واجتمع بفقهاء القيروان وامرهم بالدعوة له فى الجمع والاعياد .

وحينما استتب الامر للمهدى ، نكث أبو عبد الله بعهده ، فلاقى جزاءه مقتولا .. ووجه المهدى أكثر من حملة على مصر دون أن يفلح فى فتحها ، انما قيض لحفيده أبى تميم معد ، الملقب بالمعز لدين الله أن يحشد جيشا كبيرا عقد لواءه لجوهر الصقلى سنة ٣٥١هـ فيفتح مصر ، ويؤسس القاهرة استعدادا لاستقبال المعز وأهله ، وقد دخل ابو تميم معد وأمامه موكب من رفات أجداده .

وكان خروج المعز الى مصر نذيرا بانتهاء حكم الفاطميين فى المغرب ، فقد تولى الحكم الصنهاجيون من بني زيرى بقيادة راسهم أبى الفتوح بلكين (بولوجين) يوسف ، وأعظم رجال هذه الاسرة البربرية هو ابو الفتوح المنصور بن بولوجين ، وقد أثر عنه قوله : كان ابي وجدى يأخذان الناس بالسيف ، وآخذهم بالحسنى والاحسان .

ولم تدم دولة بنى زيرى طويلا ؛ بسبب آخر امرائها المعز بن باديس ، وقد نبذ الدعاء للخليفة الفاطمى ، وبايع بنى العباسى ، ونادى بمذهب مالك .

فدعا المستنصر بالله الفاطمى القبائل العربية رباح وزغبة المقيمين بصعيد مصر للمسير الى افريقية قائلا لهم : « سرحتكم لجواز النيل ، واعطيتكم ما يملكه ابن باديس العبد الآبق » ، وكانت لوزيره أبى الحسن

اليازورى كلمة فى ابن باديس الصنهاجى : « الا تعجبون من صبى بربرى مغربى يريد ان يخدع شيخا عربيا .. والله لارمينه بجيش لا أتحمل فيه مشقة » .

ولما رأت قبائل رباح وزغبة ان المراعى كثيرة فى برقة دون رعاة او أغنام ، ارسلت الى القبائل الاخرى بصعيد مصر تدعوها ، فزحف العرب الهلاليه وبنو سليم فى أعداد كالجراد ، على طرابلس ، فالجنوب التونسى ، يحرقون ويهدمون ويقتلون كل من يعترضهم ، واستولوا على اغلب مدن افريقية ، وقضوا على حضارة القيروان ، وابادوا من لم يهرب من أهلهـا الى الثغور ، وحطموا صناعاتها التقليدية ونهبوا متاجرها وفنادقها (وكالاتها) واعلاقها .

وبذلك انتهى سؤدد القيروان ، وخاصة بعد انتقال الحكم الى تونس .

***

كان احساسى عندما زرت القيروان عام ١٩٣٠ ، انها بلد أخنى عليه الدهر وانها لولا صناعة الزرابى (ويطلقونها على افخر أنواع سجادهم) ، ولولا جامع عقبة بن نافع ، سيد جوامع المغرب وما يحيطه من مزارات وزوايا ومساجد أثرية دينا وفنا ، لغابت المدينة المجيدة وانطوت فى دوائر الحدثان .

والقيروان الحديثة كما رايتها فى رحلة عام ١٩٧١ ، اتسعت خارج السور المحيط بالمدينة العتيقة ، يدلف الزائر الى هذه من باب الشهداء الى نهج على بلهوان ، يجوب دروبها ومعابرها الضيقة واسواقها المغطاة (سوق العطارين ، وسوق السكاجين .. الخ) ، وينتقل بين مزاراتها حتى يبلغ مرتقى الفن المغربى ف مطالعه بالجامع الكبير .

اكثر المدن التونسية التى عرفتها جوداً وسماحة ، كانت ايام الاحتلال الفرنسى اشدها حرصا على دينها ولغتها ، حكى لى أصحابى عام ١٩٣٠ قصة قيروانى واحد رضى بان يتحول مواطنا فرنسيا ، فكان منبوذا من الجميع ، وتوفى قبل زيارتى بزمن قصير، فلم يشيع جنازته مشيع ، ولا رضى حانوتى بحمل نعشه ، ولا فقيه بالقراءه عليه ، واضطر المراقب او المقيم الفرنسى الى تكليف بعض رجال الجيش المحتل من المسلمين (من غير المغاربة) أن يقوموا باجراءات جنازته ومواراته التراب .

خمسمائة اسرة تعمل نساؤها فى نسيج السجاد بانواعه على نحو ألفى نول ، مدينة هادئة تشعرك بطيب منبتها ، استقبلتنى شابا ، برحابة صدر وكرم حين نزلت بفندقها الوحيد ، وكان بدائيا ، أشبه بفنادق الكوكب الزينبى ، والمشهد الحسينى ، أما فى المرة الاخيرة فقد استقبلنى فندقها الجديد ذو الستين حجرة بحماماتها ، ومعرضها الدائم لتجارة « الزرابى » ، وحديقة لم تبلغ بعد درجة « الفناء » ، ولدارة تمثل اللطف والادب والحضارة .

هذه هى المدينة الاسلامية العريقة التى وصفها رئيس الجمهورية التونسية فى خطابه عام ١٩٥٨ ، بأن « روح المغرب العربى ولدت فيها » ، أشهر مقدساتها جامع سيدى عقبة ، أقدم واوسع واول جامع انشىء فى المغرب ، صومعته (مئذنته) النموذج الاول للصومعات المغربية والاندلسية ، ان بذتها « الكتبية » و « برج حسان » و « الخيرالدا » رشاقة ورقة وفنا ، فقد امتازت منارة القيروان عليها بالعتاقة والرسوخ والضخامة العابسة ، ترتفع طوابقها الثلاثة المربعة الى

نيف وثلاثين مترا ، بارتفاع ١٩ للطابق الاول ، وخمسة للطابق الثاني ، وثمانية امتار للطابق الثالث ، يتضايق كل طابق عن سابقه ، أفاريز كل منها تشبه أسنان الاسوار (في المساجد والرباطات والقصبات) والنسبة بين ارتفاع القاعدة الفسيحة ، واستدقاق الطابق الاعلى تضفي على هذه الصومعة مظهر القوة والجلال ؛ بينما القبة المضلعة الصغيرة التي تغطي الطابق الاعلى ذات أثر سحري في تخفيف صرامة هذه المئذنة المشهورة

ابعاد الجامع نحو السبعين مترا في العرض والمائة والعشرين في الطول ، صحنه الواسع مكشوف ، وتعلو بيت الصلاة المسقوف خمس قباب مضلعة ، أهمها واجملها القبة فوق المحراب ، موقعها وصنعتها من خصائص الفن المغربي بتونس ، تتحول من الشكل المربع في قاعدتها ، الى الاستدارة بواسطة تجويفات على شكل اصداف المحار ، وتحمل رقبة القبة ذات النوافذ والقبة مضلعة من الداخل والخارج ، مظهرها الخارجي اشبه بأضلاع القاوون (السنطاوي) .

يقوم بيت الصلاة على اساطين منقولة من المعابد القديمة ، ينيف عددها على المائة ، تعلوها باكيات ؛ ويتعامد على ممراتها رواق القبلة ، أي ايوان المحراب الذي تزين جانبيه الواح الزليج ذي البريق المعدني (بلاطات القاشاني) ، استجلبت من بغداد ، أو هي من صنع مغربي درس في بغداد ، اما قاع المحراب فتحليه الواح من المرمر ، كل منها يختلف نقشه عن اخوانه .

والمنبر تحفة رائعة من خشب الساج الهندي ، موضعه الى يمين المحراب ، انشأه ابراهيم بن الاغلب ، شاهدته في زيارتي الاخيرة منقولا من مكانه ، وموضوعا في ركن امين بسبب ما يجري في سقف المسجد من

ترميم واصلاحات هامة .

والمسجد الجدير بالزيارة بعد الجامع الـكبير ، هو المعروف بجامع ثلاثة البيبان ، انشاه الفقيه محمد بن حيزون المعافرى المهاجر من قرطبة (٢٥٢ هـ ــ ٨٦٦ م) ثم زاوية سيدى الصاحب ، وهو أبو زمعة البلوى ، من الصحابة المتوفى سنة ٣٤ من الهجرة ، دفن بالقيروان ، ومعه شعرات من شعر الرسول ، لا يعرف تاريخ انشاء مقامه القديم (القرن الثـالث الهجرى) ، انما اقام الزاوية عام ١٠٨٥ هـ حمودة باشا المرادى .

عند أقدام الوطن الجريح

بم أصف شعوري ، وقد اجتزت الحدود التونسية وانطلقت في الفضاء والفراغ الليبي الرائع ؟

ليلتان في طرابلس وليلة في كل من سيرتا وطبرق ٠٠ لم تكن محلة سيرتا غير محط لقسمة الطريق الطويل بين طرابلس وبنغازي (٤٧٥ + ٥٧٠ ك ٠ م) ، وليلتين ببنغازي ، لنتمكن من زيارة طولوميتا وقيرينة (شحات) أهم أثرين قديمين في برقة ، تحدثت عنهما في فصل سابق ، وليلة في طبرق ، تأهبا لاجتياز الحدود بين برج مساعد والسلوم .. ومن هذه رأسا الى مرسى مطروح

كنت أنهب الطريق نهب الجواد المائل الى طوالته ، بلغت سرعات ما أظنني عرفتها على الارض من قبل ؛ شجعتني عليها طرق ليبيا العجيبة : شريط اسفلتي وسط رمال تمتد الى مدى البصر ، لم يفترشها البساط السندسي الا في « الجبل الاخضر » .

معرفتي بتاريخ ليبيا الاسلامي ضئيلة، بعض معلومات عن الفتح العربي ورد ذكرها في بعض فصول هذه الرحلة ٠ امتد ملك الموحدين اليها ، واتسعت رقعة سؤددهم في حكم عبد المؤمن ، حتى بلغوا حدود مصر ، وكان من الجائز ان يحتلوها ، لولا دولة البطل الاسلامي صلاح الدين ، الذي قضى ربع القرن لا يكاد ينزل عن فرسه .

بيد انى فى طرابلس ، وامام درنة ، وفى بنغازى ، كنت استعيد ذكرياتى من سنوات الوعى الاولى وانا طالب بالمرحلة الابتدائية (١٩١٢) ، عندما نزل الطليان بشواطىء ليبيا ، كنا نسمع فى ذلك الوقت بحرب الاتراك ، دفاعا عن ملكهم فى طرابلس الغرب وبرقة ، وببطولة عزيز المصرى ، وكان ضابطا فى الجيش العثمانى حينذاك ، لم تكن آخر مرة فى حياتى أسمع فيها الطبل الصحفى والزمر الاعلامى عن انتصار العثمانيين على الطليان ، فأفرح مع الفارحين .

ثم يتضح لنا جميعا بأن العدو استولى على « بلاد العرب » ، واخرج عنها جيوش البادشاه ، ظل الله على الارض ، وحتى الحدث الذى كنت لم يفقه حكاية ظل الله هذه ، لان تربيته الدينية قومت فى نفسه الايمان بأن الله جل وعلا عن التمثيل ، بل التجسيد .

وسمعت فى وعى الشباب ببطولة عمر المختار ، وجهاده الباسل ضد الفاشستية الفاشمة ، وكيف استشهد أسيرا : ألقى به حيا من حالق طائرة حربية .

واستعدت بقراءاتى الشذرية ان ليبيا كانت اول بلاد تحررت ، وقامت فيها حكومة مستقلة ، بفضل الامم المتحدة ، حينما قررت جمعيتها العمومية فى نوفمبر عام ١٩٤٩ ، أن تسترد ليبيا حريتها كاملة فى يناير عام ١٩٥٢ ، وانها حتى ذلك التاريخ تدار بواسطة مندوب الامم المتحدة .. كان الهولندى ادريان بيلت ، السكرتير العام المساعد ، الى جانب مجلس استشارى يتألف من مندوبين عن مصر وفرنسا وايطاليا والباكستان وبريطانيا والولايات المتحدة الامريكية ، وممثلين عن اقسام ليبيا الثلاثة : برقة ، وطرابلس ، وفزان ، وعن الاقليات أجنبية (٤٦٠٠٠ ايطالى و ٢٢٠٠٠ يهودى).

وذكرت تاريخ اكتشاف البترول فى ليبيـا ، سنة ١٩٥٩ .

خرجت من ليبيـا برأى بدهى ، وهو ان الشقيقة العزيزة فى مسيس الحاجة الى مضـاعفة عدد سكانها دون توان ، حتى تتمكن من استغلال أرضها وسمائها وبحرها ، بما يتفق مع الثروة التي هبطت عليهـا من السماء نعمة ، وتفجرت من بطن أرضها ذهبا أسود ، على شريطة أن تبادر بارسال الآلاف من بعوث تعليمية الى الجامعات العربية ، فالجامعات والمعاهد الاوربيـة والامريكية ؛ فقـد يغنى المـال عن الجمال ، ولـكنه لا يستغنى عن العقل الباحث المبدع ، ومن الخطل ان تقتصر البعثات على العلوم والتكنولوجيا والاقتصاديات ، فالروح لا تربى بالعلم وحده ، وانما بتنمية الفكر ، والاحساس بالفلسفة والتاريخ والادب والفن . فالحضارة روح وعقل وشعور، قبل ان تكون آلات واجهزة ومصانع ومنشآت .. خطر الناحية المـادية فى الحضـارة انها تشترى بالمال، فاذا لم تدعم بالفكر (علما بحثا وفلسفة) وبالفن والادب ، كانت وبالا على أهلها ، وأى وبال ..

يجب أن نذكر بلاد النفط فى منطقتنا بأن النفط كنز يفنى ، وأروع مثال حضارى لنتاج العقل والاحسـاس ، هو سويسرا التى لا تملك سوى الجبال ، ومنحدرات المياه والبحيرات، والمراعى الجبلية ، ومع ذلك استطاعت أن تنشىء ثروتها الطائلة على ما يحققه العقل المدبر ، والادراك العملى ، والاحساس الفنى .

هذا راى عابر طريق ، لايزعم له قيمة ، ولا يدعى له اصالة ، ربما كان من الخير أن لا اصرح به ، لولا طيب النية ، والاحساس بآصرة الجوار والقربى ، وما استجد بين مصر وليبيا من علائق وثيقة .

عبرت ليبيا ، لا أكاد ألوى على شيء ، سوى الاحساس بقرب الوطن . بلغت برج مساعد فالسلوم ، بعد مئات الفراسخ فوق طرق ليبيا الفسيحة المستوية ، لا يعوق المسرع فيها عابر طريق ، انسانا او حيوانا .

وما أن غادرت السلوم ، حتى بدأ عذاب المسالك الوعرة ، والطرق المبهدلة التى تنتظر التمهيد والانشاء من جديد ، وقيل لى فى جمرك السلوم بأن فرج الله قريب .

ويبدو ان الطريق تحسن كثيرا كلما اقتربنا من مطروح ، كان الليل قد أرخى سدوله ، فلو لم يكن الطريق طيبا نسبيا لما استطعت مواصلة السير فى الظلام بسرعة لا بأس بها .

تذكرت انني لم اخترق طريق السلوم ـ مطروح من قبل، فقد دخلت السلوم من البحر فى رحلات الثلاثينات على السفينة العلمية « مباحث » لدراسة منابت الاسفنج المصرى ، والكشف عن مناطق صيد الاسماك ، أما طريق مطروح ـ الاسكندرية ، فقد خبرته أكثر من مرة ، وعرفت حلوه ومره على مدى أربعين عاما .. اجتزته أول مرة لدى عودتى من واحة سيوة بسيارة فورد مكشوفة ذات اطارات بالون ، حتى فوكة أو الضبعة ، ومنها بالقطار الى الاسكندرية عام ١٩٣٢ .

اننى اعرف شواطئنا الغربية ، والشرقية (البحر الاحمر) من البحر ، أكثر مما عرفتها فوق اليابسة ، وكنت أحس بأن مستقبلا سياحيا باهرا ينتظرنا ، بل ذهب بى الامل فى ذلك الزمان الهادىء بأن ميناء هاما بمطروح يقرب السفر بيننا وبين اوربا بطريقة سحرية ، وان بالامكان التوسع الكبير فى غرس اشجار الزيتون بمثل ما جرى فى تونس . هذا ومشروع منخفض

القطارة ليس خيالا ، وتحقيقه دان قريب اذا ما انقشعت الغمة وعاد السلام الى ارض الخير والعطاء .

ثم كان لقائى بحواضر الوطن ، وقد سئمت الصحارى ، ففضلت العودة الى القاهرة بالطريق الزراعى ، لان بهجة البساط السندسى الذى يفترش الدلتا تبث فى النفس راحة وهناء ، فيهما صفة الدوام، لا يضعفهما الاعتياد ، وخاصة لدى ابن المدينة الذى لم يولد وفى فمه ملعقة من ذهب ، حتى ولا من صفيح ،

كم هو وطن جدير بأبنائه ، وارجو أن تكون الاجيال الجديدة جديرة بعظمته عبر القرون الخالية .

واذا كانت رحلتى قد بدأت من باريس وبلادى تعانى أزمة حادة ، فقد انتهت الازمة على خير وانا اخترق اسبانيا ، وكانت تصلنى تباعا أخبار الوطن يستقبل عهدا مستبشرا متفائلا .

والتفاؤل لا يكفى لما اصاب شرف البلاد من اذى ، مما يخيم على قلوب المصريين كابوسا مزعجا آناء الليل واطراف النهار .. فما دام شطر الوطن محتلا ــ رباه لا اتصور المحتل يواجهنا على الضفة الآخرى من القناة ، عليه اللعنة ، وعليها اللعنة تلك القناة التى جلبت على مصر الرزايا من يوم حفرها ــ اقول : مادام شطر من الوطن محتلا ، حتى لو كان شبرا مربعا تفرك رماله اقدام الغاصب ، وبعد ان شاهدت الشمال الافريقى ينعم بالرخاء والسلام ، وهدوء سريرة شعوبه ، فان فرحة اللقاء تعكرها الحسرة الوخازة ، والحزن الدفين .

حزن على وفاة أمى سنة الهزيمة ، وبعدها بشهر ونصف . ياما رددت فى نفسى : ماتت أمى ومات وطنى فى ظرف شهرين .. كان عام ١٩٦٧ فى أرجاء نفسى سنة الكرب والبلاء ، عام كربلاء الحسين الشهيد .

عدت وما فتىء الوطن يحثو التراب فوق رأسه حزنا على ما ضاع من ارضه ، ومن استشهد من شبابه ، ومن شتت من كرام أهله .

متى يارب ترفع عن كاهل وطنى الملمات : انت العلى القدير ..

هبنا من لدنك السلام « دونا نوبس باسم » .

القاهرة ١٩٧٢

فهرس

العدد القادم

من

الهلال

قمة المجلات الثقافية في العالم العربي

أول سبتمبر

فلاسفة الإسلام

الفلسفة طريق إلى الله - فلاسفة الإسلام المعاصرون
الزهاوي الشاعر الفيلسوف - إخوان الصفا
الغزالي ورأيه في الفلاسفة - شهداء الفلسفة في الإسلام
ابن سينا - أبو العلاء - العقاد

مع أجمل الشعر والقصص ... والنقد
دراسات عن أعلام القصة ..

اليوسف الأربعة : السباعي - الشاروني - جوهر - إدريس

العدد ينفد يوم صدوره - فاحجز نسختك مقدماً - ١٠ قروش

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص . ب رقم ١٩٢٤
السيد هاشم علي نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury.
R. 25 de Marco, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL



هذا الكتاب

عرف المؤلف رحالة في المكان والزمان ، بكتبه : سندباد عصري ، و « سندباد الى الغرب » ، و « حديث السندباد القديم » ، و « سندباد في رحلة الحياة » ، و « سندباد مصري » .. رحلات المكان حول بحر الهند ، وفي الخليج العربي ، وفي بلاد الحضارة الغربية .. ورحلات الزمان تصعيد في تاريخ مصر كله ، وعودة الى ... الملاحة العربية في البحار الشرقية ، ومصادر رحلات السندباد السبع ، في كتب الجغرافيا العربية والعجائب .

وهذا الكتاب رحلة سندبادية جديدة ، قام بها كاتبها من باريس بالسيارة يوم ١٧ مايو ١٩٧١ وبلغ القاهرة يوم اول يولية .. اخترق فرنسا .. واسبانيا ، وبلاد المغرب الاقصى ، والجزائر ، وتونس ، وليبيا ، في ستة اسابيع ، قطعت فيها السيارة عشرة الاف كيلو متر . يحدثنا الرحالة عن انطباعاته عن الاندلس الاسلامية ، وبلاد المغرب الكبير ، واثر حضارة المشارقة في حضارة الاندلس ، والعلاقات الحضارية بين الاندلسية والمغاربة ، والدول التي تعاقبت على حكم بلاد المغرب ، من عرب وبربر .

صور ... رائعة ، لرحالة عرف بحرصه على رؤية الغابة قبل ... ... ارها .. لا يصور حاضر بلاد الا امام خلفية مضيئة او مظلمة من تاريخها ..

١٠ قروش